حضرمي، وهم يمتازون من بين جميع المسلمين بالاستقامة والذكاء". كيف إذا أضيف لهذا الذكاء التعليم والثقافة؟ وصدق الشاعر (علي أحمد باكثير) حين قال:

وَلَوْ ثَقَّفْتَ يَوْمًا حَضْرَمِيًّا   لَجَاءَكَ آيَةً فِي النَّابِغِينَا

يصف المستشار (إنجرامز) الحضارم بقوله: **"إن الحضرميَّ حضرميٌّ حيثما رمى عصا ترحاله، وينظر بحنين وشوق إلى ذلك الوادي - وطنه - وينتظر يوم العودة بفارغ الصبر. كما أنه يرسل كل ما يجمعه إلى الوطن ... وحين تتكون لدى الحضرمي الثروة ينسى أنه بدوي ولا يبدد شيئًا ويصبح بالتالي من ذوي العقار"**.

تذكر الرحّالة البريطانية (فريا ستارك)، في نهاية كتابها (رحلة إلى حضرموت) أنه بعد رحلة شاقة في بلدات وادي حضرموت من أدناه إلى أعلاه، وفي طريق العودة أخذت قسطًا من الراحة لشعورها بالتعب، فجاء أحد مرافقيها من البدو يطلب منها مواصلة السير وكانت مريضة لا تستطيع المواصلة حينئذ، فما كان منه إلا أن قال لها: **"الله يعافيك الله يحفظك، ويحيطك بكل خير. لا خير إلا من عند الله تعالى. له الحمد والشكر"**. تقول الرحّالة: **"يا لها من دعوات جميلة، قالها بكل إخلاص"**، ثم تضيف: **"خلال ذلك الوقت بقيت سعيدة ومرتاحة بزيارة البدوي، وفكرت عند استلقائي أن سحر جزيرة العرب، والذي شعر به الكثيرون، هو ربما نتيجة بشكل أقل لأرضها الجافّة الجعدة المشمسة، من الجمال والنبل الداخلي المتميز لأهلها"**.

عند زيارته لمصر العالم الفقيه (محمد بن عقيل)، طلب منه الأديب والكاتب الصحفي (محب الدين الخطيب) أن يتفضل على (مجلة الزهراء) بصورة صادقة عن حضرموت، فكان مما قاله عن أهلها: **"الحضرمي - كغيره من العرب - ذكي الفؤاد نشيط البدن شجاع القلب حاضر الذهن قوي الذاكرة، ثم إنه جسور على خوض الغمرات بعيد الهمة كبير الطمع محب للعمل جموع للمال، مقتصد في النفقة إلى حد التقتير، ثابت فيما يشتغل فيه إلى حد الجمود، دمث الأخلاق، موفٍ بالعهد، ألوفٌ عطوف خفيف المؤونة قلما ينزل بقوم فيستثقلون ظله أو يملون نواءه، بل ينزلونه في القلوب، ويقاسمونه الأوطان عن رغبة ومحبة وغبطة"**.

بينما يصف الأديب (صلاح البكري) في محاضرة ألقاها في دار (جماعة التعارف الإسلامي)، في القاهرة، يصف فيها الحضارمة بأنهم: **"شعب عربي حادّ الذكاء قوي الذاكرة بعيد النظر حرّ الضمير طاهر الذيل شجاع كريم لم يقهره حاكم جائر ولا فاتح طاغية، لم يخضع لإيوان كسرى ولا لبلاط قيصر، لم يبلغه فسق الروم ولا ترف الفرس، فهو نشأ بمعزل. نشأ مستقلًّا في كل شيء: في حياته، في أعماله، في حركاته وسكناته"**.

الهجرة الحضرمية ظاهرة تاريخية مدفوعة بالدين، التجارة، والرزق. أسهمت في نشر الإسلام والثقافة وبناء شبكات اقتصادية واسعة، مع استمرار ارتباط الحضارم بوطنهم وتأثيرها الإيجابي على حضرموت.

هجـــــــــرة الحـــــــــضارم

يروي المؤرّخ (الحامد) في كتابه (تاريخ حضرموت) وكذلك (بامطرف) في كتابه (المختصر من تاريخ حضرموت) أن حروب الردّة في عهد أبي بكر -رضي الله عنه، والفتوح في عهد عمر -رضي الله عنه- ومن بعده، من بواعث هجرة القبائل الساكنة بحضرموت، كغيرهم من الجهات الأخرى من جزيرة العرب. واتجاههم أولًا صوب الحجاز حيث تُعبأ الجيوش وتجهّز البعوث إلى شتّى نواحي الأرض، ثم ذهابهم ثانيًا الى الثغور، مع من انبعثوا من المسلمين في سبيل نشر الدين الإسلامي والقضاء على مناوئيه. واكتساح ما حوله مما يهدّد أوطان الإسلام من أخطار الأعداء ودسائس الكائدين.

فهبّ رجال بلاد حضرموت وعليهم أقيالهم وملوكهم ورؤساؤهم أمثال وائل بن حجر، والأشعث بن قيس، والسمط بن الأسود الكنديين، وغيرهم من زعماء قبائل حضرموت وكندة، والصدف، والسكون، وجعفي. وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كما روى الطبري- قال: **(والله لأضربنّ ملوك العجم، بملوك العرب).** فلم يدع رئيسًا ولا ذا رأي ولا ذا شرف ولا ذا سلطة ولا خطيبًا ولا شاعرًا إلا رماهم به. فرماهم بوجوه الناس وغررهم. ثم توطّنوا (الحضارم) فيما بعد في ثغور بلاد الإسلام حيث كانت جيوش الاسلام ترابط، وهذا ما يفسر وجود الحضارم في الشام وفلسطين والأردن ومصر والحجاز والعراق والجزائر وغيرها من البلدان، فكان منهم الأمراء على الأمصار، والقادة في الحروب والمعارك، والقضاة، والتجار. وقد صحبوا معهم أهلهم وذراريهم ووجدوا في تلك البلاد مما رأوه من حسن حضارتها وخصبها ما شغلهم عن الحنين والشوق إلى أوطانهم اليابسة. وقد استفادوا من هجرتهم باحتكاكهم بالمتحضّرين نسبيًّا من أهل تلك البلاد.

انقسم المؤرخون في تقييمهم لآثار الهجرة الحضرمية على وادي حضرموت، بين من يرى أنه كان لها آثار إيجابية كبقاء الصلة بين من هاجر وبين بلده وموطنه ماديًا ومعنويًا ومنهم بن عبيدالله السقاف والشاطري والجيلاني، وبين من رأى انعدام الصلة بين من هاجروا وبين وطنهم حضرموت كالحداد وبامطرف والحامد، وفي ظني أن الأمرين قد حصلا، وأن الأكثر اتصالًا بحضرموت هم من هاجروا إلى الجزيرة العربية وما حولها، أما من هاجر إلى الشام ومصر وشرق أفريقيا فقد اندمجوا مع تلك المجتمعات وأصبحوا جزءًا من نسيجها وشعبها خاصة الأجيال التالية للمهاجرين.

ذكر المؤرخ الروسي (سرجيس فرانتسوزوف) أنه في تلك البلاد التي هاجروا إليها سُميت أحياء بأسماء ساكنيها من الحضارمة: حيث **"قام سعد بن أبي وقاص بأمر من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- بإنشاء خطط لسكنى القبائل في الكوفة التي تم فتحها، أقطع لكندة بزعامة الأشعث بن قيس خطة لسكناها، وقد عاشت في الكوفة بموجب هذه الخطة فروع كندة من بني ذهل بن معاوية، وبني مرّة بن حجر، وبني الأرقم،**

وعدد من أسماء أحياء هذه المدينة كحضرموت، وكندة، والسكون، سميت بأسماء القبائل التي سكنتها. وقد بقيت هذه الأسماء حية حتى القرن العاشر الميلادي، وكان هناك حي آخر سمّي باسم حضرموت في مدينة الموصل بشمال العراق".

لقد كان لتلك الهجرة جانب سلبيّ على حضرموت، فقد تأخّرت حضرموت في العهد الأموي والعباسي تأخرًا بارزًا؛ وذلك لقلّة سكانها بعد أن رحل أهلها وذوو الشأن منهم بالأخص وتوطنوا سواها من الجهات الأخرى كمصر والعراق والشام والحجاز أيضًا. ولعل حضرموت لم تبلغ في عصر ما من التأخر والظلام ما بلغت إليه في أواسط العصر العباسي؛ لإهمالهم شأنها بعد هجرة أهلها عنها، وقبل ذلك من جرّاء الإبادات التي حدثت في حروب الردّة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- وإبادة معن بن زائدة الشيباني في عهد الخليفة المنصور العباسي، وغيرها من النزاعات. وربما يرجع ذلك أيضًا لكونها بلادًا غير خصبة ولا كثيرة الموارد في ذلك الوقت. ولغلبة الأميّة والبداوة على أهلها.

وفي مراحل تاريخية متأخرة في أوائل القرن العشرين اضطر الحضارم أمام الظروف الجغرافية القاسية وتغير المناخ وحلول الجفاف التدريجي إلى النزوح عن بلادهم والهجرة إلى الخارج لطلب الرزق. ولم تكن هذه الهجرة ظاهرة تاريخية بسيطة يمكن نسبتها إلى مجرد ظهور الإسلام وإنما هي قديمة فقد كوّنوا جالية كبيرة في الهند، وهناك بنوا مدنًا وأنشؤوا أسطولًا تجاريًا يغدو ويروح بين الهند وجنوب الجزيرة بأصناف البضائع وأنواع المتاجر، حيث يقول المستكشف الفرنسي (تشارلز جولين Charles Guillain) في كتابه (وثائق عن تاريخ وجغرافيا وتجارة شرق أفريقيا) الصادر في عام ١٩٥٦م: **"قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة في الشرق، فكانت سفنهم تجري في المحيط الهندي وبخاصة فيما بين بلادهم والهند، التي كان لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هي التي سماها الهنود Arabitoe. ولما أرسل الإسكندر المقدوني (نيارك Nearque) قائد أسطوله لاستكشاف بحر الهند؛ وجد بسواحل (جدروزيا) - الواقعة بين جبل كربيلا ومصب نهر السند- آثارًا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية. وكان الربّان الذي أرشدهم في ذلك البحر عربيًّا".**

الهجرة الحضرمية إلى شرق أفريقيا:

أما عن هجرة الحضارم لشرق أفريقيا فيذكر (إنجرامز) عن هجرتهم إلى مستعمرة (كينيا) والمحميّة **أن التقرير يشير إلى أن المستوطنات العربية في البلاد قائمة منذ وقت طويل، وأن موجة هجرة العرب الحضارم في ازدياد. فكما يقول التقرير: نشطاء ومقتصدون ويقتنع السلطان أحيانًا أن حياة الساحل تعتمد بصورة رئيسة على جهودهم. ويضيف التقرير: ومن الناحية العملية يمكن القول إنهم جميعًا من**

حضرموت أو ولدوا في كينيا. أما مهن العرب فهي مستقلة عن مهن غير الأوربيين لأن ٦٧٪ يعملون لحسابهم الخاص، وأكثر من نصف الذكور من العرب تجار. وكثير من الحضارم يعملون بالحمالة أو ينقلون ويبيعون الماء. ويعلق التقرير أن هاتين المهنتين اللتين يحبذها الشِّحريون. إن الأسر التي استقرت مخلصة وتحترم القانون وتملك العقارات وتحتفظ بأموالها داخل البلاد.

يقول حاكم ولاية (لامو) الكينية **"إن الحضارم يحترفون مهنًا مختلفة خصوصًا الزراعة والحرف التجارية الصغيرة. ويبدو أنهم جادون في العمل ويطمحون في النهاية إلى امتلاك حوانيت صغيرة. لم يؤسس الحضارم تجارة مع حضرموت ويندمجون سريعًا مع الجاليات الأخرى ويشاركون في الحياة العامة للسكان العرب في لامو. إنهم حديثو العهد بلامو مقارنة بالعرب الآخرين لكنهم يمارسون تأثيرًا واضحًا ومحددًا على الجالية. ويبدو أنهم يتقدمون تدريجيًّا نحو التأثير على الحياة العامة والمؤسسات في لامو. ويعتقد أن حوالي (٢٠٪) منهم قد قطع علاقاته نهائيًّا مع حضرموت"** - (وفقًا لتقرير إنجرامز).

ويذكر تقرير (إنجرامز) أيضًا نقلًا عن (جيليان Guillian عام ١٨٥٦م) أن سلطان زنجبار قد احتفظ بعدد كبير من الحضارم كحرس وإداريين لأفريقيا وعُمان وحين طُلب من الليفتنانت لويد مايثو عام ١٨٧٧م لتنظيم قوات السلطان، كانت القوات مكوّنة من الحضارم والفرس فقط (أنظر كتاب لين Lyne زنجبار المعاصرة - ١٩٠٥م). وبالنسبة للمهن التي كانوا يعملون بها في زنجبار فهي: التجارة والحمالة ونقل الماء والعمل الحكومي وصيد الأسماك وصناعة الذهب والفضة والعمل في المقاهي والبيوت والمستودعات وكانت تجارة اللحوم حكرًا في أيدي الحضارم منذ ١٨٧٦م، وكانوا يملكون مزارع الزعفران والأبقار أيضًا في زنجبار.

أما سياسيًّا واجتماعيًّا فقد اهتم الحضارم بالتجارة وجمع الأموال، دون أن يكون لهم شيءٌ في الحياة الاجتماعية في المحمية. فليسوا بالتالي عناصر مؤثّرة في الحياة السياسية وبالرغم من أنهم ذوو مزاج حاد، فإنهم كقاعدة يخضعون للقانون ولا يثيرون مشاكل للحكومة. ويندر أن يمثُلوا أمام المحاكم. وبحسب (إنجرامز) فإن الشعور القبلي للحضرمي يمنعه في زنجبار وفي غيرها من البلاد من الاختلاط بأعضاء الجاليات الأخرى إلا بالقدر الذي تحتاجه التجارة أو الحاجة. إنه منطوٍ على نفسه وكقاعدة فلا يشارك إلا قليلًا في الحياة العامة أو السياسية أو الرياضية أو الحياة الاجتماعية وعلاقاته مع أقاربهم من عُمان محدودة... وأن الجلوس في المقاهي أو الرقص هو المتنفس الوحيد لهم... وهناك اتجاه في زنجبار وبين الشباب العرب للاهتمام بالزي الأوربي لكن قليلًا ما تأثّر الحضارم بذلك. ويندر أن تجد حضرميًّا يرتدي لباسًا غير زيّه الوطني. وبالقدر الذي ينطبق هذا على الملابس، فإنه صحيح أيضًا عن السلوك والعادات. فالحضرمي يفضل المحافظة على عاداته ويصعب عليه تبني عادات أخرى.

كانت هناك هجرات أخرى لشرق أفريقيا، وتحديدًا في الأراضي الصومالية وإثيوبيا وإريتريا وجيبوتي، ولكنها لم تحظ بالدراسة الكافية.

الهجرة الحضرمية إلى مصر:

بحسب الباحث الدكتور (أحمد هادي باحارثة) فقد كانت أول هجرة في الإسلام للحضارمة إلى مصر في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ وانضموا إلى سابقيهم من الحضارمة الفاتحين وانتشروا في مساقط مختلفة من الأرض المصرية، ولم تمضِ فترة طويلة من الزمان حتى كان أولئك الحضارمة في طليعة المؤسسين لمفاصل الدولة في مصر بوصفها ولاية تابعة لدولة الخلافة الإسلامية، واحتل عدد من وجهائهم مواقع متقدمة وقيادية في السلم الوظيفي لهذه الولاية فاقوا بها غيرهم من مهاجري العرب وفاتحيهم بمصر لما تمتعوا به من خصال خلقية وصفات علمية تؤهلهم لذلك وتكسبهم ثقة أولي الأمر بالدولة الإسلامية وفي ذلك يقول المؤرخ الحضرمي (محمد عبد القادر بامطرف): **"إن طبيعة حضرموت الفقيرة ترغم أبناءها على الهجرة سعيًا وراء الرزق ويضطرهم هذا إلى اكتساب مزايا معينة كالمهارة والأمانة تكفل لهم النجاح في كفاحهم في البلاد الغريبة عليهم، وقد ظهر هذا بوضوح في حياة الحضارمة الذين أقاموا بمصر حيث كان لهم اعتبار خاص لدى أداة الحكم بها"**، ومما يذكر فما بين عامي ٨٤ و ٢٤٤ هجرية أي حوالي قرن ونصف القرن ولي القضاء بمصر تسعة من رجال حضرموت أي بمعدل قاضٍ واحد كل ثمانية عشر عامًا. منهم من تولّى القضاء بأمر من والي مصر ومنهم من تولاه بأمر من الخليفة نفسه.

بحسب ما أورده المستشار البريطاني (ويليام هارولد إنجرامز). في كتابه (حضرموت ١٩٣٤/١٩٣٥م) فإن معظم الحضارم في مصر استقروا منذ حوالي نصف قرن بدءًا بالتجارة بصورة مصغرة. وبما أنهم بطبيعتهم مقتصدون فقد فقد كوّنوا ثروات وأصبحوا أغنياء، وقديمًا كانوا الوحيدين المشتغلين بالتجارة من أبناء جنوب الجزيرة... وفي القاهرة تقع المستوطنة الحضرمية بالقرب من مسجد سيدنا الحسين أنهم أثرياء نوعًا ما، ويتاجرون في منتجات عدن وحضرموت (البن والبخور والصابون السوري). وأن المهن الأساسية لهم هي تجارة البن والبخور ولا تصدّر الجالية أية منتوجات مصرية إلى حضرموت. لكن ترسل مبالغ من المال -وهي الأرباح والفوائض- إلى حضرموت. وبهذه الصورة يحتفظ أفراد الجالية بعلاقة بموطنهم الأصلي. وهناك بعض الأملاك والعقارات لبعض أفراد الجالية... ويختلط الأعضاء بالجاليات الأخرى الناطقة بالعربية ويتزوجون من الأسر المصرية. وينشأ الأطفال في جو مصري ويصعب تمييزهم من بين المصريين. ورغم هذا الاندماج إلا أن الحضارم لا تعنيهم الأمور السياسية.

الهجرة الحضرمية إلى جنوب شرق آسيا:

بحسب (د. صالح باصرة) فقد اختلف الباحثون حول بداية تاريخ هجرة العرب إلى الشرق الأقصى. ويرى (حامد القادري) الإندونيسي من أصول حضرمية مؤلف كتاب (كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في إندونيسيا): "أن العرب وصلوا إندونيسيا قبل وبعد ظهور الإسلام واستمرت العلاقة بين البلاد العربية ومنها اليمن وعلى وجه الخصوص حضرموت وإندونيسيا، وصلت هذه العلاقة ذروتها أيام العباسيين بين القرنين الثامن والثالث عشر الميلادي". ويقول المؤرخ محمد أحمد الشاطري: "يرجع تاريخ هجرة العرب إلى الشرق الأقصى إلى القرن الأول الهجري أي السابع الميلادي، لنشر الإسلام في هذه المناطق وفي عهد الخليفة الأموي مروان بن عبد الملك".

ويتفق الباحثون على أن هجرة الحضارم في التاريخ الحديث إلى (جاوة) وما جاورها من الجزر كسومطرة وسليب والملايو بدأت في القرن الثامن عشر الميلادي. ورحلوا إليها عبر المحيط الهندي في مراكبهم الشراعية من شواطئ البحر العربي، ثم أخذوا يندفعون إليها ويتكاثرون بالمصاهرة والتناسل مع سكان الجزر حتى أصبحت لهم السيادة والمركز الاجتماعي والاقتصادي الأول فيها. وتأسست في بعض الجزر سلطنات صغيرة تحت رئاسة أمراء من سلالة بعض العائلات الحضرمية. وبحسب ما جمعه (إنجرامز) من إحصائيات عن التواجد العربي في جزر الهند الشرقية والذين ينحدرون دون استثناء من حضرموت، فقد بلغ عددهم (٨,٩٠٩) نسمة في عام ١٨٦٠م ثم تضاعفت هذه الأرقام تباعًا لتبلغ (٧١,٣٣٠) نسمة في عام ١٩٣٠م. ولكن لا تعزى جميع هذه الزيادات للهجرة فقط، ولكن لنسبة الزيادة في المواليد والمصاهرة أيضًا. أما عن تجارتهم فيذكر (إنجرامز) نقلًا عن القنصل العام بالوكالة للحكومة الهولندية في جزر الهند الشرقية دكتور (دي فريز De Vries)، **أنهم يعملون في:**

1. تجارة البيوت والأراضي.
2. تجارة أقمشة الباتيك (لصناعة الصوارين والقمصان وغيرها).
3. استيراد البضائع من الجزيرة العربية.
4. الدلالة (الكومسيون/السمسرة/العمولات).
5. التعليم الديني وإمامة المساجد.

وتعتبر الجالية الحضرمية في سنغافورة أغنى الجاليات لكثرة ممتلكاتها من البيوت والأراضي. يذكر (لي وارنر -المجلة الجغرافية- عدد مارس ١٩٣٣م) أن الحضارم يملكون كل شوارع سنغافورة وبينانج وأغلبهم من القبائل الكثيرية. ويبدو أن الجالية قد استثمرت ثرواتها في شراء الأراضي والبيوت لتجنب الربح الذي لا يتفق مع الشريعة الإسلامية.

يقول الكاتب البريطاني (روبرت سارجنت): **"إن أهم وأول المهاجرين إلى تلك الجزر في التاريخ الحديث هم السادة العلويون. وقد وصل هؤلاء قبل وصول الهولنديين. ونظرًا لهجرة عدد كبير منهم إلى جاوى والجزر المجاورة لها فقد نشروا في هذه الجزر المذهب الشافعي وحاربوا الأعراف المحلية وقواعدها. كما نشروا بعض عاداتهم وبعض كتبهم"**. ويذكر (إنجرامز) أنه يبدو أن هناك قلّة من الأقطار التي تعيش نسبة كبيرة من سكانها في المهجر مثل حضرموت. ويقدّر عدد المهاجرين من حضرموت بين (٢٠-٣٠٪) من السكان المقدر للقطر، ويعيش أغلبهم في الهند الشرقية وشرق أفريقيا ومصر وبعض الأقطار الأخرى المطلة على البحر الأحمر. وعن تأثيرهم وسلوكهم داخل تلك المجتمعات فيذكر (إنجرامز) **أن المعلومات تشير إلى أن الحضرمي لا يتدخل في الحياة الاجتماعية المحلية أو السياسية، بل يحصر نفسه في مجموعته. فهم محافظون وتجار جيدون ومحترمون، ونزعتهم الوطنية لحضرموت، ويحترمون ويطيعون قوانين الموطن الجديد. ويحصر الحضارم اهتماماتهم بجمع المال والتعاليم الدينية وحفظ العلاقات الوطيدة بحضرموت.**

ومما قاله الرئيس مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيا السابق، عن الحضارم في جنوب شرقي آسيا، قوله: **"إن ماليزيا لم تتعرض لفتوحات إسلامية ولم تُرغَم على اعتناق الإسلام وإنما اختاره أهلها، واهتدوا إليه من خلال التجار المسلمين الذين جاءوا إلى بلادهم من حضرموت، وكانوا غزيري العلم ولم تكن فيهم حماقة أو جبروت المستعمرين، بل كانوا بكل بساطة إخبارًا ومرآة صادقة تعكس تعاليم الإسلام السمحة. فأسروا بسلوكهم حكام الولايات فاعتنقوا الإسلام، بل حثّوا شعوبهم على اعتناقه".**

أمسك المهاجرون بزمام التجارة في البر والبحر وسيطروا على المواصلات البحرية والبرية، وكانت مراكبهم التي بلغت أكثر من مئة مركب تجوب جزائر الشرق الأقصى وتبحر إلى الهند وإلى سواحل الجزيرة العربية ثم تعود محملة بأنواع البضائع. وكانوا يقودون تلك المراكب بأنفسهم. وقد دامت سيادتهم على المواصلات البحرية زمنًا ليس بقصير.

ذكر الكاتب الهولندي (فان دن بيرخ): **"إن العرب أقاموا ممالك إسلامية في سواحل جزيرة جاوى وللسيطرة على التجارة كان على الهولنديين انتزاعها من أيدي العرب. وقد قام الهولنديون بهذا العمل بمساعدة الملوك الهندوس الذين كانوا موجودين في تلك الفترة"**. لقد واجه الهولنديون مقاومة كبيرة من المسلمين العرب وعلى وجه الخصوص من الحضارمة المهاجرين للسيطرة على الجزر الأندونيسية واحتلالها، لذا فقد سعوا للتفريق بينهم وبين غيرهم من المسلمين. وكانوا يعتبرون العرب المسلمين من أشد أعدائهم لتحقيق مآربهم.

لخّص الباحث والسياسي الهولندي (كريستيان سنوك هرخرونيه) سياسة حكومته ضد المهاجرين الحضارم بالعبارات التالية التي أوردها في رسالة له من (بافيا) إلى الحاكم العام سنة ١٩٠٢م: **"إن وجود الحضارم في هذه البلاد لا يفيد الشعب والبلاد، بل ومن الناحية السياسية يشكلون خطرًا علينا وسوف يزداد خطرهم إذا ما أُلغي قانون تحديد أماكن إقامتهم وحرية تنقلهم. وإذا فتحت جزيرة جاوى أبوابها لهؤلاء سيصبح عددهم بدل الآلاف عشرات الآلاف وتصبح مراقبتهم مستحيلة". ويضيف (هرخرونيه): "إن عدم قبولنا للحضارمة من الأصل لم يكن مخالفًا للعدل وكانت له أسباب يمكن أن يبنى عليها، فلم تنتبه لها الحكومة، وسمحت لهؤلاء بالدخول على شروط يسهل عليهم القيام بها. لكنها بعد أن سمحت لهم بالإقامة جعلت تراقب حركاتهم بصورة لا تطاق، وربما كان لسياسة المأمورين الذين تختلف أنظار بعضهم عن بعض في الشدة وعدمها مدخل في تشديد هذا الخناق على الحضارمة، بحيث أصبح العربي لا يملك هناك شيئًا من الأمان على حاله واستقباله"**، وفي هامش كتابه (حاضر العالم الإسلامي) ينقل عن (الأمير شكيب أرسلان) قوله: **"ثم إن هناك (بجاوا) مسألة مهمة يقال لها مسألة الحضارمة. هذه تكرّث الحكومة الهولندية اهتمامًا أكثر من كل مسألة سواها في الجاوا لأنه معلوم كون أهل حضرموت من أقوم أهل الأرض على الأسفار، وأن فقر بلادهم مع مضاء عزيمتهم يحملانهم على جوب الآفاق، وأكثر ما ينتشرون في جزائر الجاوا والبحر المحيط، فكانت الحكومة الهولندية تحسب لهم حسابًا كبيرًا، وأشد ما يضيق صدرها بهجرتهم إلى تلك البلاد خشية أن ينشروا الدعوة الإسلامية أو ينبهوا الأهالي السذج إلى الأمور التي لولا الحضارمة ربما لا ينتبهون إليها، فما زالت تضع الحواجز أمام نزولهم في تلك الديار وتراقب حركاتهم وسكناتهم"**، وينقل (كرامة) أيضًا رأي المستشرق الإنجليزي البروفيسور (روبرت سارجنت) قوله: **"وسواء سافر الحضارمة من أراضيهم كجنود أم بحارة أم تجار أم علماء فإنهم في رحلاتهم هذه نشروا الدين الإسلامي حيثما ذهبوا"**.

ذكر مؤلفا كتاب (الشتات الحضرمي: تجار، علماء، رجال دولة حضارم في المحيط الهندي بين عامي ١٧٥٠م-١٩٦٠م) **أنه كان الحضارمة على وجه الخصوص نشطاء تجاريًّا وسياسيًّا ودعاة هداية إلى الإسلام السني في بلدان إندونيسيا، وماليزيا، وفي جنوب غرب شبه القارة الهندية وفي هضبة الدكن، وعلى كلا شاطئي البحر الأحمر وفي خليج عدن، وفي سواحل شرق إفريقيا والجزر المجاورة لها هبوطًا إلى جزر القمر جنوبًا**. الأمر الذي جعل كلارنس سميث -أحد مؤلفي الكتاب- يخرج باستنتاج **أن تاريخ حضرموت خلال القرنين الماضيين لا يمكن فهمه إلا عبر فهم واستيعاب محيطه في الشتات الحضرمي واسع الانتشار، ويعود ذلك إلى شبكة المهاجرين الحضارمة الناجحة التي أهّلتهم لأن يلعبوا دورًا كبيرًا في المجتمعات المضيفة لهم في بلاد المهجر بما يفوق بمرات ما يمكن**

توقّعه تناسبًا مع ضآلة حجم وسكان وطنهم الأصلي. هؤلاء الحضارمة المهاجرون أبدوا قابلية رائعة في الاندماج مع المشهد المحلي مع احتفاظهم بهويتهم المميزة. (بحسب محمد سالم قطن - صحيفة الأيام).

يضيف الكاتبان (فريتاج وسميث): **"كان للحضارم نشاط كبير في مجال السياسة الدولية فمن جانب دعموا الإمبراطوريات الإسلامية ومن الجانب الآخر عجلوا بزوالها بقيامهم بدور متميز في ميلاد التنظيمات السياسية الحديثة. وتطلّع كثير من الحضارم إلى بلاد الشتات ليجدوا فيها مخرجًا لمشاكل بلادهم وشاركوا بشكل فاعل في الحياة السياسية في البلدان المضيفة".**

في الواقع كلمة الشتات ليست الكلمة المناسبة أو الصحيحة التي ينبغي التعبير بها عن هجرة الحضارم، فكما يعرّف الشتات الكاتب (محمد بن سالم بن علي جابر)، في مقال له تحت عنوان (الهجرة الحضرمية بين الواقع التاريخي والتحفّظ على مفهوم الشتات)، فإن **"الشتات، في تعريفه الأكاديمي، يقوم على فقدان شبه كامل للصلة الجغرافية والنفسية بالوطن الأم، وغالبًا نتيجة اقتلاع قسريّ أو ظروف تمنع العودة بشكل حقيقي أو رمزي. أما الهجرة فتتسم بمرونة أكبر، وبإمكانية تكرار الانتقال والعودة، سواء أكانت الدوافع اقتصادية أو اجتماعية أو دينية. ومن هنا، يصبح وضع -الهجرة الحضرمية- في خانة الشتات قضية إشكالية، إذا أهملنا الفروق الجوهرية".** وبالتالي فإنني أرى أن التعبير عن هجرة الحضارم ووسمها بأنها نوع من الشتات سواء على لسان الرحّالة والمؤرخين الغربيين أو حتى بعض أقلام أبناء حضرموت؛ هو تعبير جانبه الصواب فبحسب (بن علي جابر) **"الهجرة ليست نكبة تسردها المآسي، ولا قطيعة ترويها كتب الشتات، بل رحلة مفتوحة على الأفق، يتعاقب فيها الذهاب والإياب، وتظل فيها حضرموت حاضرة في القلب وإن غابت عن العين. وعلى مدى قرون، ظل الحضرمي يتحرك في فضاءات المحيط الهندي وشرق أفريقيا وآسيا، حاملًا معه لغته وثقافته ونظامه الاجتماعي، ومحتفظًا في الوقت نفسه بروابطه القوية بأرضه الأولى"**، ولا زلت أتذكر كيف كان والدي وأعمامي يحنّون للعودة لحضرموت ووادي دوعن وبلدة صِيف، حتى بعد وفاة والديهم واستقرارهم في المملكة وتأسيس أعمالهم التجارية فيها، إلا أن ذكريات الطفولة ومراحل الشباب كانت تعشعش في أذهانهم ويطربهم الحديث عن الوادي والقنص والمدروف والشرح رغم المعاناة التي كانوا يعانونها من قلة الموارد في تلك المرحلة - أقصد مرحلة الطفولة والشباب، وكان كلما أقبل مسافر أو مهاجر من حضرموت ومن الوادي على وجه الخصوص -سواء من العائلة أو من غيرها- كان البيت الكبير بيت العائلة مكانًا يستريح فيه ويحمل معه أخبار البلاد وأهلها، حيث لم تكن وسائل التواصل الحديثة قد انتشرت بعد وكان المسافرون هم وسيلة نقل الأخبار والرسائل.

يصف الدكتور (عبدالله قنيوي) حال وادي دوعن في ستينيات القرن الماضي بقوله: "وكان أهالي وادي دوعن يعيشون في عزلة تامة عن العالم الخارجي في تلك الحقبة، فوسائل الوصول إلى الوادي كانت بدائية؛ حيث يعتمد الأهالي في سفرهم وتجارتهم على الجمال والحمير، ويسلكون طرقًا متعرجة في الجبال لا يعرفها إلا الأدلة المهرة من أهل البادية، وكانت وسائل الاتصال مع العالم الخارجي تعتمد على الرسائل الورقية، ولاحقًا أشرطة الكاسيت التي يتم تسجيل مقاطع صوتية وسلامًا وشكاوى للمغتربين".

وعليه فالوصف الأمثل لتلك الهجرة كما يذكر (بن علي جابر) هو أن نصفها بأنها **"هجرة تفاعلية"، حيث يتداخل البُعد الاقتصادي مع الديني والاجتماعي، وتتصل حركة الأفراد بخياراتهم الشخصية بقدر ما تتأثر بالظروف. فحتى الأجيال الثانية والثالثة -التي وُلدت في الخارج- ظل كثير منها يحتفظ بارتباط وجداني واضح بحضرموت، ويتوق لزيارتها أو المشاركة في مشاريعها. وهذا يختلف عن أوضاع الشتات الكلاسيكي، حيث تنقطع الأجيال الجديدة عن الوطن الأم لافتقاد الصلة الحية به.** وأحدثكم عن نفسي فأنا من مواليد المملكة العربية السعودية، نشأت وترعرعت على أرضها وهي وطني الحبيب وموطن عزةٍ كما يقول الشاعر (عبدالرزاق مصطفى بليلة) في قصيدته الرائعة عنها:

رُوحِـي وَمَا مَلَكَــتْ يَـدَايَ فِـدَاهُ
وَطَنِي الْحَـبِيبُ وَهَلْ أُحِـبُّ سِـوَاهُ
وَطَنِي الْذِي قَدْ عِشْتُ تَحْتَ سَمَائِهِ
وَهـوَ الْذِي قَـدْ عِـشْـتُ فَـوقَ ثَـرَاهُ
مُنْذُ الطُّفُولَةِ قَدْ عَشِقْتُ رُبُوعَـهُ
إِنِّــي أُحِـــبُّ سُــهُــولَهُ وَرُبَــاهُ
وَطَنِي الْحَبِيب.. وَطَنِي الْحَبِيب .. وَهَلْ أُحِبُّ سِوَاهُ؟
وَطَنِي الْحَـبِيبُ وَأَنْتَ مَوْئِلُ عِــزَّةٍ
وَمَنَارُ إِشْـعَـاعٍ أَضَـاءَ سَــنَـاهُ..
فِي كُلِّ لَمحَــةِ بَــارِقٍ أَدْعُــولَـهُ
فِي ظِلِّ حَـــامٍ عُــطِّرَتْ ذِكْـرَاهُ
وَطَنِي الْحَبِيب.. وَطَنِي الْحَبِيب.. وَهَلْ أُحِبُّ سِوَاهُ؟

ولعلي أقتبس كلمات الكاتب والمؤرخ (محمد بن أبي بكر باذيب): **"إن وطنًا وُلِد الإنسان على ترابه، ونشَق طيب ثراه، وسرَح ومرَح في جنباته طيلة عهود صباه، وحمل بين جوانحه وطِيَّ أحشائه حبًا وعشقًا لكل زاوية فيه، بل لكل حبة رمل من ترابه، لجدير**

بأن يهبه المرء أغلى ما عنده، وأن يضحّي بكل نفيس وغال في سبيل رفعة شأنه، وإسعاد مواطنيه، كيف لا وهم الأهل والأقربون، وهم أولى بالمعروف".

وحق لي أن أفخر بهذا الوطن الآمن وقيادته الحكيمة الرشيدة، وعلى الرغم من ذلك وعندما تيسرت لي زيارة حضرموت في عام ٢٠١٠م، بدعوة وضيافة من المهندس (عبدالله أحمد بقشان) لم أتردد في قبول الدعوة، لكي يتسنى لي مشاهدة ومعايشة ما سمعته من والديَّ وأعمامي وقرابتي عنها وعن أهلها وأرضها وسهولها، وزيارة ساحلها وداخلها من المكلّا إلى سيؤون وتريم وشبام مرورًا بوادي دوعن وقراه المنتشرة على جانبيه. ولا أستطيع أن أصوغ كلمات أو عبارات شكر وتقدير وامتنان لما حظيت به من عناية وكرم وتسهيل للرحلة من جانب المهندس عبدالله بقشان في تلك الرحلة وما تلاها من رحلات لحضرموت ولوادي دوعن.

أثر هجرة الحضارم إلى جنوب شرق آسيا وغيرها:

لعب المهاجرون الحضارمة دورًا كبيرًا في الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية في حضرموت، فقد ساهموا في تأسيس المدارس الأهلية والمعاهد والجمعيات الخيرية والثقافية والأندية، ونمت في حضرموت حركة التأليف عن تاريخ حضرموت، وطباعة الكتب والصحف والمجلات، وشهدت حضرموت حركة عمرانية كبيرة بسبب الأموال المرسلة لأهالي المغتربين وذويهم في المهجر، وكان لصحيفة (الرائد) التي تنقل صورة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والصحية والأمنية في وادي دوعن، والمشاكل والعقبات التي تواجه أهله، وكذلك الأخبار التي تتحدث عن المشاريع والتنمية كان لها دور في إسهام عدد من أبناء الوادي المغتربين من التجار إلى جانب الحكومة في حل تلك العقبات والمشاكل.

كما انتقلت من جراء تلك الغربة كلمات ومصطلحات ملاوية وهندية وكينية إلى لهجة حضرموت، وانتقلت بعض الموائد الإندونيسية والماليزية والهندية والصومالية للمطبخ الحضرمي، وانتشار الملامح الأفريقية والإندونيسية على قسمات وجوه بعض أبناء حضرموت وهذا يعود إلى انتشار زواج المهاجرين ببنات المهجر من إندونيسيا أو المولّدات، وقالت صحيفة العربي في استطلاعها عن سيؤون **"دهشنا عندما وجدنا عددًا كبيرًا من أبناء سيؤون تميل ملامحهم إلى ملامح أهل آسيا. إنهم أبناء الحضارمة المهاجرين الذين تزوجوا إندونيسيات".**

يقول المستشار البريطاني (إنجرامز) والذي عمل مستشارًا لحكومة بريطانيا في عدن فترة من الزمن، حيث ذكر في كتابه (حضرموت) الذي أعده كتقرير حول الحالة في حضرموت سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا بين عامي ١٩٣٤م/١٩٣٥م، يقول عن أثر هجرة الحضارم إلى شتى البلدان: **"فإن الهجرة الحضرمية المتواصلة إلى بلدان مختلفة؛ تُزايد التشرّب بأفكار غريبة. لقد ولّت العزلة التاريخية لهذا البلد. ورغم ما تعانيه المناطق**

خارج المدن من حياة بدائية إلا أن ملامح التغيير بدت بارزه في حضرموت". ويذكر أيضًا عن أحوال الموالدة (الذين ولدوا من أصول حضرمية وأمهات ملاوية): **"أما الأجيال المتأخرة في سنغافورة فيقال إن لهم اهتمامات بالحياة العامة أكثر من التجارة فيهتمون بالمرح أكثر من جمع المال، ولا يكنّون احترامًا أو حبًّا لموطنهم الأصلي. وكغيرهم من العرب في أقطار أخرى، يبدو أنهم أضحوا فريسة سهلة للتأثير الحديث، وأصبحوا ملاوبين ليسوا ذوي نفع لا لوطنهم الأصلي ولا لوطنهم الجديد. ومن هؤلاء أجيال ما قبل الحرب ولدوا في سنغافورة وكالحضارم الأصليين يحتفظون بولاء للوطن الأم"**.

وأيضًا كانت هناك سلبيات اجتماعية لهجرة الحضارم إلى جنوب شرق آسيا وإلى غيرها من بلدات الهجر، فقد كان ذهاب المرأة الحضرمية مع زوجها إلى جنوب شرق آسيا وغيرها من الأمور النادرة في تاريخ الهجرة الحضرمية الحديثة، وكان من أخطر آثار الهجرة إلى الجزر ذهاب الآباء والأزواج إلى المهاجر مع إبقاء عائلاتهم في حضرموت وتطول مدة انتظار المرأة لزوجها أو أبيها المهاجر وأحيانًا لا يعود بسبب الوفاة أو الاندماج في حياة المهجر وزواجه من إندونيسية أو سنغافورية أو مولّدة، ولقد عاشت بعض أسر حضرموت مآسي اجتماعية بسبب عدم سفر الزوجة أو العائلة مع عائلهم. وكما يقول (الكاتب عمار باطويل) في روايته (سالمين): **"جاوة خطفت قلوب الحضارم"**.

كما أدّت الحوالات التي يبعثها المغتربون إلى انتشار روح الاتكالية والبطالة وشيوع ظاهرة الاستهلاك، فقد خلق الاعتماد على التحويلات جيشًا من العاطلين في حضرموت يعتمدون على ما يرسله أهلهم وإخوانهم من الخارج. ولقد أدخلت الهجرة وعودة كثير من الشباب الذين ولدوا وتربوا في المهجر بعض العادات والسلوكات السيئة إلى الوطن، وانتشرت بعض الجرائم التي لم يكن المجتمع في حضرموت يألف حدوثها، كما أن انتشار البطالة وعدم تكيف بعض الشباب العائد مع الحياة الجديدة في وطنه الأصلي أسهمت أيضًا بقسط في انتشار الجريمة.

الهجرة الحضرمية إلى الحجاز والمملكة العربية السعودية:

يذكر (إنجرامز) أن الدكتور (كريستيان سنوك هرخرونيه) السياسي المستشرق الهولندي كتب في حوالي عام ١٨٨٥م يقول: **"إن الحضارم هم المنافسون الجادّون للهنود في تجارة تسليف النقود. هؤلاء يأتون إلى مكة على اختلاف أنواعهم دون نقود، لكنهم مزوّدون بقدره على التكيّف والمعاناة اللامتناهية ولا يعيقهم أي أمر من اختيار تجارتهم ونوعها. وقد بدأ بعضهم كحمّالين في جده حيث إن تجمع الحمّالين يسيطر على كل الحركة التجارية ونقلها بين المدن والميناء. فهم بذلك يكسبون"**. ويضيف (هرخرونيه)

ولكن أسلوب تسليف النقود ليست الحرفة الوحيدة للحضارم في الحجاز... فقد أنجبت أساتذة كبارًا لهم باع في العلم والمعرفة ومنهم (محمد سعيد بابصيل).

وبالنسبة للأعمال التي كانوا يحسنونها ويعملون بها في الحجاز فهي: أصحاب الدكاكين، تجارة الجملة، الصرافة والتسليف، الخدمة في البيوت، وأكبر عدد منهم يعملون في تجارة التجزئة ويمكن أن يقال إن كل ثاني دكان (سجائر والكبريت والبهارات والحبوب) يملكه حضرمي استطاع أن يعيش حياة الكفاف. وتدريجيًّا ومع الأيام يجمع ذلك الرجل بعض المال الذي يمكنه من العودة إلى حضرموت ويعيش بهدوء لمده تتراوح بين ثلاث وأربع سنوات، يعود بعدها إلى مهنته مرة أخرى. وفي غيابه يتولى المهمة أخوه أو أحد الأقرباء من قبيلته. وبالنسبة لولائهم للأرض التي يهاجرون إليها فيذكر (إنجرامز) أن الحضارم تتوافق طباعهم كثيرًا مع الوضع المحلي. ويدرك الحضرمي أن حياته مرتبطة بحياة البلاد التي هو فيها وأنه لا يمكن أن يكون سببًا في أي عداء في جاليته.

مكانة الحضارم في المجتمع الحجازي:

تحت هذا العنوان كتب الباحث (خالد الجوهي) في دراسته لنيل درجة الدكتوراة تحت عنوان (الحضارم في الحجاز ودورهم في الحياة العلمية والتجارية)، إن هناك علاقات سياسية نشأت بين حضرموت والحجاز تمثلت في تبعية حضرموت لنفوذ حكّام الحجاز من أشراف وعثمانيين، حيث تم إرسال حملات عسكرية إلى حضرموت من أجل إخضاع المنطقة لحكمهم، كما تم إحصاء عدد من المراسلات بين أمراء وحكام الحجاز وبين زعماء ووجهاء حضرموت، وقد لعب السادة العلويون الحضارمة دورًا كبيرًا في تقوية العلاقات بين البلدين لما تربطهم بأمراء مكة المكرمة من صلات نسب ومصاهرة.

وفي مجال المكانة العلمية فقد كانت الحياة العلمية في البلدين تشهد نشاطًا ملحوظًا، حيث كان الحرمان الشريفان من أكبر مراكز الإشعاع الفكري والعلمي في العالم، كما كانت مدن حضرموت الرئيسة مراكز تنويرية على مستوى اليمن، كما أن الفكر الصوفي كان منتشرًا في البلدين حيث كان سمة بارزة من سمات ذلك العصر، حيث انتشرت الزوايا والتكايا والأربطة التي تمارس فيها الطقوس الصوفية، وكان علماء حضرموت والحجاز يميلون في أفكارهم إلى النزعة الصوفية.

إن الحضارم في بلاد الحجاز حظوا بامتيازات لم يحظ بها غيرهم من الجاليات الأخرى وذلك لما تمتعوا به من صفات خلقية طيبة، جعلت الحكام والولاة ينظرون إليهم نظرة احترام وتقدير، كما أن انتساب كثير منهم إلى العترة النبوية الشريفة وهم (السادة العلويون) من بني الحسين بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- زاد من تقديرهم، حتى أن السلاطين

العثمانيين وأمراء مكة المكرمة من الأشراف، ميّزوهم بأوامر وفرمانات مخصوصة حثّت فيها وزراءها وقضاتها على إعطائهم حرمتهم والقيام بمحبتهم، مع التحرّي في أنسابهم وحفظ شرفهم وأحسابهم بغاية العزّ والاحترام. ولهذا كان العلماء والفضلاء من أهل الحجاز يهرعون إليهم في القضايا الشّائكة والمعقدة وفي أثناء ظهور الفتن والاضطرابات.

وفي مذكرات الشيخ المرحوم (محمد صالح بن علي باعشن) جاء فيها: "إن كثيرًا من تجارات جدة كانت بيد الحضارمة، وأن لهم تقاليدهم الموروثة ومكانتهم الاجتماعية في هذه المدينة، وقد كانت الدولة العثمانية تقدر لهم هذه المكانة، حيث كانوا يمتازون عن سكان المدن الأخرى في الحجاز بأن دعواهم وتركاتهم. وبيع وشراء دورهم تتم عند شيخ السادة، ولا يتعرض لهم والٍ ولا قاضٍ. وقد صدر بذلك فرمان سلطاني سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م من قبل السلطان العثماني محمود خان، وبقي هذا الامتياز ساريًا طيلة العهد العثماني ثم في العهد الهاشمي.

كان للحضارم وضع اجتماعي خاص فيما يُسمّى بمشيخة السادة العلويين، وهي تختلف عن نقابة السادة العلويين فمشيخة السادة بمثابة مرجعية لكل الحضارم سواء سادة علويين أو غير سادة من باقي القبائل الحضرمية، وقد وصف العلامة المؤرخ (عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف) هذه المشيخة في كتابه (بضائع التابوت) بأنها تشبه (دولة داخل دولة) وقال: **"كانت لهم أيام الدولة العثمانية امتيازات عظمى تشبه الإمارات الداخلية تحت مشيخة السادة، حيث أشركوا فيها سائر مواطنيهم من الحضارم، فكان لهم بالحجاز وغيرها من بلاد الدولة العلية المجد الذي لا يُرام والركن الذي لا يُضام".**

نظر السلاطين العثمانيون للحضارم، وخاصة السادة العلويين منهم نظرة احترام وتقدير لكونهم ينتسبون إلى البيت النبوي الشريف. كما أنه عند قدوم السادة العلويين إلى (إستانبول) أي إسطنبول، كان السلاطين يقومون بإكرامهم والإغداق عليهم. إن هذه العلاقة الحسنة والمميزة بين الحضارم والسلاطين العثمانيين انعكست على العلاقة بين الحضارم والولاة العثمانيين في الحجاز.

لقد ساهم العلماء الحضارم في إنعاش الحياة العلمية في الحجاز، من خلال قيامهم بالتدريس في حلقات الدرس في الحرمين الشريفين، حيث كانت لهم حلقات خاصة في أروقة الحرم المكّي والنبوي، وفي الأربطة والزوايا التي أسّسوها أو أشرفوا على العناية بها، كما أنهم أسّسوا دروسًا خاصة في بيوتهم كانت بمثابة منتديات ثقافية وأدبية تتخلّلها مناظرات ونقاشات علمية قيمة، كما شاركوا مع إخوانهم الحجازيين في نشر العلم في بوادي الحجاز، كل ذلك كان إسهامًا منهم في إثراء الحياة العلمية.

لقد كان التجار الحضارم إحدى الجاليات التي كان لها دور في الإمساك بزمام التجارة الداخلية والخارجية في الحجاز من استيراد وتصدير وبيع وشراء وأنشأوا لهم فروعًا في معظم مدن وقرى الحجاز، وكان لهم امتداد إقليمي كفروع للتموين أو للاستحواذ العقاري أو مراكز لإرسال البضائع، ومخاطبة الشركات، والتحويلات المالية، والتعاقد.

كان الحضارم من أكثر الجاليات تأثيرًا في المجتمع الحجازي وخاصة المكي والجدّاوي لكثرة هجرتهم إلى هاتين المنطقتين، وقد تبادلوا مع الحجازيين العادات والتقاليد وتأثروا معهم في هذه العادات من حيث اللبس والمأكولات الشعبية التي أصبحت جزءًا مهمًا من المائدة الحجازية، وكذلك في التراث الشعبي الذي شهد تبادلًا في الرقصات والغناء والألحان الدينية والصوفية، كما أن هناك تشابهًا واضحًا في اللّهجات المحلية وفي الأمثال الشعبية لكلتا المنطقتين.

الهجرة في طلب العلم ونشر الإسلام:

- ذكر العلامة (علوي بن طاهر الحدّاد) في كتاب (جني الشماريخ - جواب أسئلة من التاريخ) عن أسباب عدم تفرغ الناس في حضرموت لطلب العلم بقوله: **"قد عُرف سكان حضرموت بالتعصب على ما وقعوا فيه من شذوذ والجمود عليه؛ لغلبة البداوة والعاميّة عليهم ولشدة الضنك وبؤس القطر؛ فأهله على الغالب تذهب أكثر أوقاتهم في تحصيل الضروري من المعاش فلا يتفرغون للاستفادة، والذين قُدّر لهم الإقبال على العلم منهم في تلك الأزمنة إنما تهيأت لهم أسباب خاصة تيسر لهم معها التفرغ لذلك"** ولعل ذلك كان من أسباب هجرة بعض الحضارمة لطلب العلم والتفرغ له.

أوردت كتب التاريخ أنه كان للحضارمة نوع آخر من الهجرة ليس له أي علاقة مباشرة بالظروف الاقتصادية أو السياسية، ألا وهو الهجرة لطلب العلم والمعرفة تجلّى ذلك في البعوث التي ترسل في صور جماعية وفردية، منذ القرن السادس الهجري -الثاني عشر الميلادي- إلى الحرمين الشريفين، وإلى زبيد، وبغداد، والقاهرة وغيرها، فيقبلون على العلم بجدٍ، مما جعلهم يتولّون مهامّ القضاء، والفتوى، والوعظ، والإرشاد، والتدريس.

يذكر الباحث (د. خالد الجوهي) أن الحضرمي وجد ضالته في الحجاز فهو المركز الذي لا يملّ الاغتراف من مناهله العلمية، كون الحرمين الشريفين من أكبر مراكز الإشعاع العلمي والفكري في العالم الإسلامي؛ ولهذا برع عدد كبير منهم في علوم الشريعة الإسلامية وأصبحوا يتبوؤن مراتب عليا في مجال الإفتاء والتدريس والإمامة والخطابة في الحرمين الشريفين والمجاورة فيهما.

وبحسب الباحث (د. عاشور فيح) في كلية الآداب جامعة عدن، فقد شكّلت الرحلات العلمية والهجرات التي تمت إلى بلاد الهند مقدمة لرحلات متعددة الأغراض إلى جزر الهند الشرقية، وجنوب شرق آسيا، وكان لأبناء حضرموت في هذه المناطق دورٌ مشهودٌ في نشر الإسلام، كما أسهموا في فترات لاحقة في رسم ملامح الحياة السياسية والثقافية في هذه المناطق.

أسباب هجرة الحضارم:

يعتبر الحضارم من أكثر الشعوب هجرة لخارج بلادهم ولأسباب يمكن إجمالها فيما يلي:

١ **البحث عن لقمة العيش:** وهو من أكثر الأسباب دفعًا، خاصة في أوقات الحروب الأهلية والمجاعات وحدوث الكوارث.

٢ **النشاط التجاري:** عبر الموانئ الرئيسة (الشِّحر والمكلّا وغيرها).

٣ **الحروب القبلية:** وما نتج عنها من فوضى سياسية وانعدام الأمن، إذ عاشت حضرموت ردحًا من الزمان حالة من انعدام السلطة المركزية التي يمكنها أن تفرض الأمن والاستقرار، وكان الخوف من الثأر سببًا لهجرة بعضهم.

٤ **المكاسب التي يجنيها المهاجرون:** والرسائل التي يبعثونها لأقاربهم وأهليهم برغد العيش في المهجر.

٥ **حب وغريزة التملك والإتّجار:** المغروسة في طبيعة الحضرمي وفي دمه.

ومن أشهر الهجرات في العصر الحديث تلك التي كانت إلى: شرق إفريقيا وشرق آسيا والحجاز، ولكن تظل هجرتهم للحجاز مختلفة عن بقية الهجرات حيث ارتبط الحضرمي بالحجاز برابطة روحية ووجدانية، حيث يشعر بنفسه وكأنه في بلده الأصلي، وأنهم مرتبطون به ارتباطًا حميميًّا ويرتجزون بقولهم:

ويشْ يفُكْ الحَضْرَمي مِنِ الحِجَازْ   وَالله مَا يِفْتَكْ وإن قَطَعوا عَليه المَجَازْ

وأينما حل الحضارم فإنهم يبدعون ويحرصون على ترك بصماتهم في المجتمعات التي ينخرطون فيها، فقد تولّى القضاء في (بَرْقَة) جمعٌ من حضرموت آخرهم (خير بن سعيد بن خير). وتولّى على الأندلس (معاوية بن صالح الحضرمي)، وعلى فلسطين (ضمضم بن عقبة، وعبد السلام بن عبد الله، والنعمان بن المنذر)، وعلى حمص (كثير بن مرة، وجبير بن نفير)، وعلى دمشق (يحيى بن حمزة).

يقول الشاعر:

لَقَدْ وَلِيَ القَضَاءَ بِكُلِّ أَرْضٍ   مِنَ الغُـرِّ الحَضَارِمَةُ الكِـرَامُ
رِجَـالٌ لَيْـسَ مِثْلَهُمُ رِجَـالُ   مِنَ الصِّيدِ الجَحَاجِحَةُ الضِّخَامُ

ويقول الشاعر يزيد بن مقسم الصدفي:

يَا حَضْرَموتُ هَنِيئًا مَا خَصصْتِ بِه مِن الحُكومَةِ بَيْنَ الْعُجِمِ وَالْعَرَبِ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ والإِسْلامِ يَعْرِفُهُ أَهْلُ الرِّوَايَةِ والتَّفْتِيشِ والطَّلَبِ

وبحسب المؤرخ الروسي (سرجيس فرانتسوزوف) فقد احتل عدد من رجال حضرموت مناصب رفيعة الشأن في الجهاز الإداري لدولة الخلافة. فقد ولي القضاء عدد من الحضارمة في مختلف مناطق دولة الخلافة. فكان (يونس بن عطية) أول قاض حضرمي يتولى قضاء مصر في عام ٨٤ - ٨٦ هـ، وتولى القضاء من بعده بين وقت وآخر حتى عام ٢٠٤هـ / ٨١٩م ثمانية قضاه آخرون من حضرموت، وفي نفس هذا الوقت تولى القضاء عدد من إخوانهم الحضارمة في كل من: القيروان وبرقة وفلسطين وحمص ودمشق. وبحسب (سرجيس) فقد كان السبب وراء تعيين الحضارمة في جميع هذه المناصب الرفيعة، يعود بدرجة رئيسة إلى شهرتهم بالاستقامة، والمعرفة الرائعة لأسس التشريعات والموروثات الإسلامية وكذا كفاءتهم الإدارية الرفيعة، ومواهبهم الخلّاقة في تسيير شؤون الدولة.

وفي الشرق الأقصى في إندونيسيا جنّة الشرق استقر المهاجرون الحضارم وسيطروا على التجارة في البر والبحر، وحكموا بعض الجزر، وقضوا على البوذية، ونشروا الإسلام.

يذكر (عبدالقادر الصبّان) أن من أسباب هجرة الحضارمة أنهم: **"قوم قست عليهم الطبيعة في بلادهم وقست عليهم السياسة والأحداث، وكانت الهجرة لديهم هي المتنفّس من البطش السياسي ومن قسوة الطبيعة، فلو أجلنا نظرنا قليلًا نرى أن هنالك قوافل مرت عبر التاريخ ورحلت من البلاد وحطت في بلدان كثيرة وأن عائلات أوجدت لها مكانة مرموقة في مهجرها، ونبغ في المهجر كثير من الحضارم".**

لم تتوقف هجرة الحضارم عند النماذج التي تم ذكرها، ولكن كانت تلك أشهرها وأكثرها وإن كانت هجرتهم للهند أيضًا جديرة بالذكر لو تيسر لنا عنها مزيدٌ من المعرفة والمعلومات والمراجع، إلا أنه لا تكاد تخلو أرض في الكرة الأرضية لم يطرقها الحضارم حسب ما ذكر كثير من المؤرخين، وحسبنا ما ذكرناه.

تاريخ حضرموت يجمع بين الاستقرار الاجتماعي، والنشاط التجاري، وصراع السلطنات، وتدخل القوى الخارجية، مع حضورعلمي وثقافي بارز، وتحولات كبرى انتهت بالاستعمار، ثم مرحلة الاستقلال، وتبدل البنية السياسية.

شذرات موجزة عن الصراعات للسيطرة على حضرموت

يذكر الباحث (أبو صلاح حسين بن سلمان) في كتابه (الإفادة في معرفة الصحابة من كندة وحضرموت) أنه بعد وفاة النبي -ﷺ- وانقضاء حكم الخلفاء الراشدين أن حضرموت تعرضت لفقدان كثير من تاريخها في عهد الأمويين فقد شهدت حضرموت الجَور وظلم الولاة والعسف؛ الأمر الذي ولّد الثورات والصراعات القبلية والمشاغبات، وماجت البلاد بالفتن وأصبحت حضرموت مأوى لكثير من الفتن كالخوارج والقرامطة والتشيّع والتصوّف وانحدرت حضرموت، وجاء إليها أقوام شتّى فعاثوا في البلاد الفساد وفعلوا الأفاعيل بأهلها، وماجت حضرموت بالقبائل الناقلة إليها كما يموج البحر، وتوالى على حضرموت الولاة من سلطة إلى أخرى، واختلط الحابل بالنابل واستمر حال بلاد حضرموت من سيئ إلى أسوء في فترة ما أطلق عليه المؤرخون العصر التاريخي الوسيط عصر الدويلات المتعاصرة في اليمن.

وبحسب الباحث (خالد الجوهي)، فإن حضرموت لم تعرف في تاريخها الطويل حكومة ذات شوكة قوية خضعت لها كل أنحائها، بل قامت فيها إمارات متعددة أشبه ما تكون بدويلات المدن، إلا أن الحكم الفعلي خارج أسوار تلك المدن كان في يد رؤساء العشائر الحضرمية تدار وفق تقاليدهم وأعرافهم.

يذكر (عبدالقادر الصبّان) أنه في أواخر أيام بني أمية قام (عبد الله بن يحي الكندي) الملقّب بطالب الحق بثورته على بني أمية ويطالب بالخلافة. وهو زعيم حضرمي وصفه المؤرخون بالاجتهاد والسياسة والشجاعة والنبل، ثار على بني أمية وتوجه من حضرموت بعد أن بويع إلى صنعاء يقود جيشه واستولى عليها، ودخل صنعاء وخطب خطبته وتوجه إلى الحجاز ودخل مكة وشهدت المنطقة حروبًا دامية وعدم استقرار قُتِل فيها طالب الحق بعد أن استولى على مكة، وهو إباضي المذهب، وانتهت دولة بني أمية وجاءت دولة العباسيين والحروب في حضرموت مستمرة فجنّد المنصور جيشًا بقيادة معن بن زائدة عام ١٤٠هـ فأمعن معن قتلًا وخرابًا وتدميرًا، ولكن لم يستمر حُكم العباسيين في حضرموت واليمن إلا اسميًّا فقد جاء الزياديون، ثم اجتاح الصليحي داعية الفاطميين حضرموت، وعاد الإباضيون مرة أخرى وحكموا حضرموت بقيادة وزعامة الإمام الإباضي أبي إسحاق إبراهيم الهمداني وكان بينه وبين الصليحي حروب متوالية، وجاء بنو معن حوالي سنة ٤٥٨هـ، وجاء القرامطة واستولوا على البلاد وأمضوا فيها انحلالًا وفسادًا، وجاء آل زريع عام ٥٦٢هـ ثم جاء آل راشد في عام ٦٠٦هـ فنعم الشعب بحياة هدوء واستقرار في العهد الراشدي، ولم يستمر العهد الراشدي فقد قام النزاع والقتال وجاء الأيوبيون وكان قائدهم الزنجيلي وفتك وقتل وجاء الحبوظي عام ٦٧٣هـ والرسولي وأخيرًا جاء آل كثير عام ٧٨٦هـ.

ففي الفترة بين القرنين الخامس والسابع الهجري لم تكن الحالة الاجتماعية بحضرموت في تلك الآونة بالمرضية وما كانت شؤونها السياسية ولا الإدارية على أحسن ما يرام، بل كانت

-بالرغم من دعوة العلويين وغيرهم وعِظاتهم التذكيرية بكتاب الله وسنة رسوله -ﷺ- في اضطراب دائم وتطاحن مستمر، وكان حبل الأمن بحضرموت مضطربًا إلى حد بعيد، وليس ذلك في الطرق والمخالف فقط، بل كان هذا الخوف والرعب موجودًا حتى بين سكان المدن الذين لا يفتؤون شاكّي -حاملي- السلاح، على جانب من الحيطة والحذر على أنفسهم وعلى بنيهم وأهليهم وعلى أموالهم.

كانت حضرموت مسرحًا مضطربًا هائجًا للنزاعات القبلية والأطماع العشائرية، فكان كل ضعيف بها عرضة لفتك الفاتكين وغارات المغيرين إذا لم يلتجئ إلى من هو أقوى منه ساعدًا وأكثر عددًا ممن يستطيع الدفاع عن نفسه. يقول المؤرخ (بامطرف) عن تلك الفترة (٤٠٢هـ إلى ٦٦٢هـ) الموافق (٧٥٠م إلى ١٠١٠م) **"كانت البلاد الحضرمية مجزّأة إلى مناطق عشائرية يتحكم في كل منطقة منها رئيس عشائري من ذوي القوة والمنعة"** ويقول: "إنه من المؤسف أن المؤرخين أهملوا تاريخ حضرموت عن تلك الفترة".

وبحسب المؤرخ (الحامد) **"كانت روح الانتقام فاشية في القوم في غاية من الوحشية والقسوة، فلا يزال الخصم منهم يتربص لخصمه ويتحين له الفرصة حتى إذا مكّنته الظروف فظفر به وظهر عليه؛ عمل به كل ما يستطيع المنتقم القاسي من صنوف التشفّي وضروب الانتقام، فقتل رجاله وهدم دياره واستباح أمواله وأهلك ما لا يستطيع نقله منها".**

أما الحالة العلمية آنذاك فلم تكن على ما يرام. فبالرغم من وجود العلماء السنة بمدينة (تريم)، لم تكن قوّة العلم حينئذ كافية لاكتساح الجهل المتكاثف في أنحاء وادي حضرموت. ولكن جهود الدعاة والصالحين استمرت في العطاء والبذل من أجل توعية الناس بأمور دينهم وردّ ضالهم وتعليم جاهلهم، وقد كان لتريم وعلمائها من العلويين وغيرهم دور كبير في تلك الجهود. وبحسب الدراسة التي أصدرها موقع الصوفية تحت عنوان (التصوّف في حضرموت) فقد عرف منتصف القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري بازدهار العلوم الشرعية كالفقه والعلوم العقلية واللغة، لاسيما في تريم وشبام والهجرين وكذا مدينة الشِّحر بالساحل، وبالنظر إلى كتاب (تاريخ حضرموت) لصالح بن علي الحامد يستطيع القارئ أن يطلع على مظاهر هذا الازدهار وأبرز العلماء والفقهاء الذين قادوه ولمعت أسماؤهم. وقد أشار إلى هذا الازدهار (الشلي) في كتابه (المشرع الروي) فقال: **(إن أهل حضرموت كانوا مشتغلين بالعلوم الفقهية وجمع الأحاديث النبوية ولم يكن فيهم من يعرف طريقة الصوفية ولا من يكشف اصطلاحاتهم السنية حتى أظهر الفقيه محمد بن علي باعلوي علومها ونشر في تلك النواحي أعلامها)**. وإن كانت الصوفية في حضرموت قد شابها بعض الانحراف والغلو في مرحلة من مراحلها. مثل طلبهم من المشايخ المقبورين قضاء الحاجات وتفريج الكربات، والقصص في إنقاذ الغرقى في

البحر لمن استغاث بالأولياء كثيرة جدًّا، وكذلك الخلط بين التوسل واتخاذ الوسائط بيّن جليّ في المصادر وكتب المناقب. ومن ذلك القول باطلاع بعضهم على ما في اللوح المحفوظ، والاطلاع على البرزخ وعلى الجنة والنار والغلو في النبي -ﷺ- والاجتماع به يقظة وأنه يحضر في الموالد ولذلك تراهم يقومون ترحيبًا به، وأن على المريد أن يطيع الشيخ وألا يخالفه حتى ولو رأى منه أمرًا يخالف الشرع وعلى المريد أن يكون لشيخه كالميت بين يدي غاسله. بل بلغ بعضهم أن يقول: "**أما علمتم أن جلسة ساعة بين يدي ولي كمثل عبادة سبعين سنة**". وهذه الأمور قد بيّن أهل السنة والجماعة موقفهم منها. وقد بلغ بهم الغلو أن قال قائلهم:

شَيخِي أَبِي المِحْضَارِ قُطْبُ زَمَانِهِ ... ذَاكَ المصَرّف فِي الدُنَا وَأَوَاخِرِ
مَا قَطُّ يدْعُـو باسْمِهِ ذُو كُرْبَةٍ ... إلّا وَيُدْرِكُـهُ بِغَـوثٍ حَـاضِرِ

وكان الصوفي القطب (عبد الله بن علوي الحداد العلوي الحضرمي) يضع الصوفي الولي في موقعه الصحيح كما حدده الإسلام له. فوصفه بأنه محصّن باتباع السنة والشريعة وأنه لا يعدو أن يكون بشرًا لا يملك التأثير على أحد ولا يملك ما هو خاص بالله تعالى وقال: "**التصوّف الحقيقي الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى وحده لا شريك له، لا تأثير لولي ولا غيره في شيء قطّ لا حيًّا ولا ميتًا. فمن اعتقد أن للولي أو غيره تأثيرًا في شيء فهو كافر بالله تعالى**".

بين عام ٦٠٠ وعام ٩٠٠ للهجرة اختلفت الحالة بحضرموت في عصر دولة (آل يماني) عن الحالة في العصر السابق. فقد تقدمت البلاد تقدمًا لا بأس به متأثرة بالتحول الطارئ على (تريم) ونشاط السادة العلويين وغيرهم من الدعاة في أنحاء وأرجاء حضرموت كافة، فقطعت البلاد في سبيل الحياة العلمية والعمرانية والزراعية شوطًا لا بأس به، وكان نصيب العلم منها أعظم من نصيب غيره. فانتشرت المدارس والخلوات ودروس العلم في ربوع حضرموت، حتى شاع صيتها وتغلغل العلم في كل بلدة وقرية تقريبًا. وانتشر التصوّف انتشارًا كبيرًا وشهدت حضرموت نشاطًا علميًا لا بأس به مدفوعًا بنهوض المذهب السني الشافعي على أنقاض المذهب الإباضي، الذي لعب دورًا في انفصال حضرموت عن بقية العالم الإسلامي السني، لما توحيه إليه عقيدتهم من الفتك وعدم حرمة مخالفيهم من العقائد الأخرى كما ذكر ذلك المؤرخ الشاطري.

امتد هذا التأثير إلى القرون اللاحقة وكان من أهم أسباب هذا النشاط في تلك الفترة تشجيع سلاطين حضرموت للعلم والعلماء، وبحسب الباحث (فائز باعباد) فقد تميز ذلك الوقت بكثرة العلماء في حضرموت حتى قيل: "إنه كان في تريم وحدها ثلاث مئة مفتٍ" وقيل: "**إن الصف الأول من جامعها كان كله فقهاء مجتهدين، وقريب من ذلك في شبام**

والهجرين، وإن مسجد عاشق في تريم كان يجلس على دكته من أهل العلم والفتوى خمسة وأربعون رجلًا".

هؤلاء العلماء على كثرتهم فيما يظهر لم يهتموا بالتدوين إلا قليلًا، أو أن أكثر مدوناتهم ضاعت لسبب أو لآخر، فرغم هذه الحركة العلمية لم يؤلفوا الكتب الكثيرة مع ما يبدو من سعة علومهم ومقدرتهم على الكتابة، ولو فعلوا لكان فضلهم عظيمًا ومعروفهم جسيمًا.

أما الحالة السياسية فلم تكن في أحسن حالاتها وكانت أشبه بالفوضى وكانت عبارة عن دويلات وإمارات وعشائر ونزاعات على السلطة. يقول المؤرخ (محمد عبدالقادر بامطرف): **"إنه لمن المثير للاهتمام أن يشهد الإقليم الحضرمي على ما فيه من جفاف وفقر وقلة سكان، ذلك الاختصام الذي تميز بالحروب الطاحنة التي دارت في كافة أدوار التاريخ في مختلف أرجائه الصحراوية المقفرة الموحشة، في أوقات لم يدر بخلد الحكام الذين تعاقبوا على حكمه وأسالوا الدماء البشرية أنهارًا على تربته... امتلاك ما فيه أو استغلال ما يحتمل أن تكون لجغرافيته من قيمة في إطار الاستراتيجية العالمية، كما أن أولئك الحكام لم يفكروا في استخدام السلطة التي كانوا يسعون إلى حيازتها في النهوض بالشعب أو بتطوير حياته إلى الأفضل؛ وهل يقتتل البشر على وجه البسيطة لمجرد نزوة الاقتتال؟ وهل الاستيلاء على السلطة يدفع إلى المغامرات الدموية؟".**

يرى الباحث (أحمد صالح الرباكي) مدير مركز (الرناد للتراث بتريم) في دراسته بعنوان "إمارة آل يماني الأولى- تريم" الفترة بين عامي ٦٢١هـ-٨٧٢هـ، أنه شهدت القرون السادس والسابع والثامن صراعات سياسية ونزاعات قبلية ساهمت في عدم استقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية والعلمية، فتكوّن لدينا ما يعرف بدويلات المدن أو حكومات المدن وتقوقعت تلك القوى في البلدات والمراكز المهمة، وكان توسعها بين جزر ومدٍّ مرتبط بضعف الأطراف الأخرى وقوتها أو التحالفات والنزاعات التي تحكمها، وميّز صراعات هذه الفترة دخول قوى خارجية في معتركها كالرسوليين والأيوبيين الذين أرسلوا جيوشًا لإخضاع هؤلاء الأمراء وملوك المدن الحضرمية، الأمر الذي أدّى إلى تطلع القيادات العشائرية في حضرموت للحكم والاستقلال أكثر من ذي قبل عقب ضعف سيطرة الدولة الرسولية والأيوبية، فنشأت في المدن الرئيسة الثلاث تريم وشبام والشِّحر إمارات وصفت بأنها أشبه بكانتونات المدن في أوروبا في حين ظلت خارج أسوار تلك المدن وبقية مناطق حضرموت تحكمها رئاسات قبلية منطقية.

وبالنسبة للحالة المعيشية فقد كان الناس في ضنك وتقشّف، وكان التمر هو من أفضل طعامهم لكثرة نخيلهم، وكانوا يدّخرون منه ما يكفيهم لسنتهم في بيوتهم بعد جمعه من أشجار النخيل ويبيعون ما فاض عن حاجتهم لشراء مستلزماتهم الأخرى من طعام وكساء وغيره. وفي مقدمة كتاب (الرحلات والدراسات الجغرافية لحضرموت) للكاتب (أحمد سعيد باحاج)،

فإن حضرموت اليوم ليست حضرموت الأمس. وحضرموت الأمس ليست حضرموت ذلك الماضي البعيد الذي كان الأخ يتربّص فيه بأخيه ليقتله أو يسلبه. فبُنيت البيوت والمساكن على مشارف الأودية وفي قمم الجبال وتسلّح الناس بما يقدرون عليه من سلاح. كان ذلك نتيجة لتدهور الأوضاع الاقتصادية والتجارية بعد الكساد الذي أصاب تجارة اللّبان والبخور هذه التجارة التي أنشأت في يوم من الأيام دولًا وممالك عاش أهلها في خيرويسر. إلا أن أهل حضرموت لم يعتنوا بهذه الثروة اعتناءً كبيرًا في مرحلة ما، فكما يروي (باحاج) عن الرحّالة (جيمس ثيودور بينت) عند زيارته لحضرموت في عام ١٨٩٣م أنه اكتشف وجود بعض النباتات داخل الأخاديد تعتبر من فصيلة نباتات اللّبان والبخور والمر، لكنها مهملة حيث لا يكلف البدو أنفسهم مشقة جمع ثمارها، بل إنهم يستأجرون بعض الأفراد من الصومال ليقوموا بهذه المهمة. ومن هنا اعتقد (جيمس بينت) **أن تدهور الوضع الاقتصادي في هذه البلاد جاء نتيجة لتدهور زراعة وانتاج البخور واللّبان والمرّ.**

أما عن الحالة الأدبية وعن الأدب الحضرمي فيذكر العلامة (باحتّان) أن هجرة الحضارم إلى اليمن الأعلى لطلب العلم بزبيد تتابعت؛ لقلة المعارف والعلماء المحقّقين بحضرموت حينئذ لأسباب؛ أعظمها: اشتغال أهلها بتلك الحروب الطاحنة التي عمت القرن السابع، ولذلك ظهرت طرائق الصوفية والتحويط، ولهذا كان الأدب الحضرمي ناقصًا جدًا في ذلك العصر، وظهر الشعر الحميني (الدارجي)، وهو الشعر السهل الممتنع. ولذلك كان الحضارم يتنافسون فيه قديمًا وحديثًا، غير أنا نقول (الكلام لباحتّان): **"إن الشعر الحكمي بحضرموت بلغ غاية الكمال قبل البعثة وبعدها في صدر الإسلام، فلما اشتغلوا بالحديث أولًا، ثم بالفقه ثانيًا وبأمور الدين. خَبَتْ مصابيح الشعر، ورَكَدت ريحه، فلما استتبّ أمر الدين، ومضى عصر الراشدين، وتولت الأحكام بنو أمية، ثم بنو العباس، واتسع العمران رجع الناس إلى ما تهواه النفوس من الشعر، فسمَت منزلته، وعَلت درجته إلى القرن الرابع، ثم أخذ في الانحطاط قليلًا بظهور الفتن حتى لم يبْق من أهله إلا أفراد موزعون في الأحقاف، ولم يزل كذلك حتى حصلت النهضة الأخيرة في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر الهجري".**

يوضح (روبرت سارجنت) في كتابه (نثر وشعر من حضرموت) أهمية الشعر في حضرموت وأنه مظهر من مظاهر الحياة عند الحضارمة: "يعتبر الشعر في حضرموت كما هو الحال في جميع البلدان الناطقة بالعربية، فنًّا من الفنون الرئيسة أو بالأحرى الفن السائد الذي تمارسه وتتذوقه كل الطبقات، وبهذا فإنه يعتبر مظهرًا من مظاهر الحياة وربما يكون أكثر المظاهر بروزًا في مختلف الأنشطة والاحتفالات الشعبية، ونتيجة لذلك أصبح من الممكن الحصول على معلومات إضافية عن جميع مظاهر الحياة العربية تقريبًا،

من الشعر العربي أو الشعر السائد في الحياة العربية أي الشعر العامي" يقصد به الشعر الحميني. وفي رسالة أرسلها السيد (علي عبدالله التوي) لسارجنت من (بتافيا) يقول فيها: "الشعر الحميني هو صدى لمشاعر وأحاسيس الشعب يصدر عن الأفراد من شعرائه، معبرين عن سواده، وتثيرهم لقوله أبسط البواعث".

يذكر (عبدالقادر الصبّان) عن الحركة الأدبية في حضرموت في القرن العاشر وما بعده أنها شهدت حركة علمية وأدبية زاخرة، وشهدت ازدهارًا علميًّا وأدبيًّا وثقافيًّا وصوفيًّا، وشهدت استقرار سياسيًّا أيضًا، وكان من نتيجة ذلك إنتاج علمي وأدبي وعطاء كثير، وتدفقت منابع الأدب العلم بالعلماء الأفذاذ والأدباء والشعراء أمثال (فقيه القطر العلامة الكبير علي بايزيد، وبن مزروع، والمؤذن، والفقيه الصوفي عمر بامخرمة، معروف باجمال وغيرهم كثير). وزخرت المكتبات بمؤلفات هؤلاء العلماء والأدباء وشهدت حركة التأليف تقدمًا سريعًا ومنظّمًا. وحفلت حضرموت بالأدب الصوفي كما يقول (الصبّان) في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر وحتى أوائل القرن الرابع عشر، وذلك بسبب انتشار روح التصوف التي طغت على المنطقة، وانفراد الجهّال بالسلطة، فوجد الشعراء والأدباء أنه لا يوجد هناك من يستحق المدح، فانصرفوا وانشغلوا بقصائد المدح للنبي محمد -ﷺ- ولآل بيته الكرام، ومنعوا طلبة العلم من قراءة الأدب العربي حتى دواوين الشعر القديمة كديوان البحتري والمتنبي وأبي تمّام. إلا أنه مع أوائل القرن الرابع عشر تبدلت الأمور بفعل عامل الزمن والتطور، ومع ازدهار الحركة الأدبية والعلمية في سائر الوطن العربي خاصة في مصر وسوريا ولبنان، وتحسّن المواصلات بينها وبين تلك البلدان وأيضًا بين بلدات حضرموت نفسها، والهجرة وما لها من تأثير بالغ في دخول كثير من الإنتاج الأدبي والكتب والمجلات والدواوين. كذلك عدم تطبيق كثير من المشايخ لروح التصوف وانغماسهم في الحياة المدنية والحياة المستجدة، فلم يعودوا مؤثرين في تلاميذهم ومريديهم. كذلك استقرار الحياة السياسية والاقتصادية نوعًا ما. وكانت تلك وغيرها من محوّلات الأدب الحضرمي من التصوف إلى أدب متطلع يشارك ويساهم في مجرى الأحداث.

في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، انتهت الدولة الكثيرية الأولى في حضرموت، وقام على أنقاضها ما يسمى في التاريخ الحضرمي بحكم الطوائف اليافعية في مدن وقرى معينة في ساحل ووادي حضرموت ومن أبرز تلك الطوائف اليافعية الإمارة الكسادية في مدينة المكلّا (١١١٥ هـ / ١٧٠٣م) وإمارة آل بن بريك في الشِّحر (١١٦٥ هـ / ١٧٥١م).

حاول القعيطيون وهم بطن من قبائل يافع نزحوا إلى حضرموت حديثًا في عهد الدولة الكثيرية، في إقامة دولة يافعية لهم في حضرموت، مستعينين بالدعم المقدم لهم من قبل زعيم هذه الأسرة في الهند وهو الأمير (عمر بن عوض القعيطي)، وفي نفس الوقت كان هناك

(آل كثير) يحاولون إحياء دولتهم المندثرة والتي تجاذبتها القوى اليافعية محاولين القضاء على السلطة اليافعية في مدن وادي حضرموت. مستعينين في ذلك بالدعم الذي يقدمه لهم السلطان (غالب بن محسن الكثيري)، فضلًا عن الدعم المادي والمعنوي الذي قدمه العلويون.

استعان العلويون بالسلطنة العثمانية وأشراف الحجاز وطلبوا دعمهم وعونهم لتأييد السلطان غالب الكثيري، الذي وافق على الولاء والطاعة للدولة العثمانية التي منحته فرمانًا بتوليته حاكمًا على حضرموت. وظل الصراع محتدمًا بين الكثيري واليافعي للسيطرة على حضرموت فترة من الزمن. بقيت حضرموت يقودها حكومتان (الدولة القعيطية) ومعها الثغور ومعظم حضرموت، والحكومة (الكثيرية) تسيطر على سيؤون وتريم ومناطق محدودة من الداخل.

حاول كثيرون الحلم بحضرموت الكبرى التي تجمع بين الحكومتين تحت سقف راية واحدة ودمجها في حكومة مركزية، ولكن هيهات أن يتنازل كل طرف عما تحت يده للآخر وقد أُزهقت دونه أرواح وسالت دماء. يوضح الرحّالة (ميولين) أثر الانشقاق على حضرموت وأسباب تخلفها عند زيارته لها في عام ١٩٣١م: **"الضعف الأساسي هنا هو انعدام الوحدة. لقد أدركوا من التجربة أنهم لا يمكن أن يحققوا هذه الوحدة بأنفسهم. لذلك يرون من الضروري قدوم سلطة قوية تكون أقوى من كل المجموعات الصغيرة في البلاد ذات المصالح المتضاربة. سلطة تستطيع فرض الوحدة وتضع بأمر قاطع حدًا للحروب القبلية الانتحارية. لكن هذا مجرد إزاحة الواجب الشاق، أي الهروب. التغيير للأحسن لا بد أن يأتي من داخل البلاد نفسها، لابد أن يتحملوا عبء مسؤوليتهم".** ثم يذكر (ميولين) زيارته للشيخ (سالم بن جعفر بن طالب) الذي كان قد عاش فترة في (سورابايا) وله فيها مصالح واستثمارات وثروات، ويروي كيف أن الشيخ (سالم بن طالب) كان يناشده ويحثه على أن تتدخل حكومة هولندا في فرض الصلح بين الأطراف المتنازعة ولو بالقوة؛ حيث لا يبدو أن الحرب ستنتهي دون تدخل قوة خارجية، ولكن (ميولين) أخبره أن تدخل حكومة هولندا يبدو مستحيلًا إلا بإذن من بريطانيا، وأنه طالما لا توجد سلطة مركزية يصبح تحقيق هذا الأمر من الصعوبة بمكان، وأن الحل يكمن في النضال من أجل الوحدة وتكوين سلطة مركزية عن طريق التواصل مع السلطات البريطانية في عدن، وهذا ما حصل لاحقًا.

في أثناء الصراع العسكري بين القوتين المتنافستين على السلطة في حضرموت (آل كثير ويافع) في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، رأى العلويون أن سلطتهم الدينية والروحية وامتيازاتهم الاجتماعية غدت مهددة، ولذلك بذلوا محاولات لفرض نفوذهم على القوى المتصارعة وإقامة دولة باسمهم. وطلبوا من العثمانيين أن تكون حضرموت تحت سلطة الدولة العثمانية وتعيين والٍ عليهم وإمدادهم بقوات عسكرية، ولكن لم يفلحوا في الحصول على تأييد كامل من العثمانيين في ذلك الشأن، لذا قاموا بتأييد السلطان غالب الكثيري.

يذكر المؤرخ (الشاطري) أنه قد لعب كل من عمر بن عوض القعيطي اليافعي، وغالب بن محسن الكثيري، وعبدالله بن علي العولقي، الذين تحلّى كل منهم بالعصامية والشجاعة والطموح والثراء الواسع، وكانوا يعيشون في الغربة في (حيدر أباد) بالهند، لعبوا دورًا رئيسًا في تنفيذ رغباتهم السياسية لتكوين حكومات تابعة لهم على أرض حضرموت، وقد وجدوا لهم مؤيدين ومناصرين من القبائل التابعة لهم، وهكذا بقيت حضرموت مسرحًا للصراعات للسيطرة عليها من قبل قوى متعددة ولسنوات طوال، وكانت هذه الصراعات تفتك بالأرواح وتشيع الخوف وعدم الاطمئنان وتدمر ثروات البلاد ومواردها بدلًا من النهوض بها.

أما العولقي فلم يطل به المقام على المسرح السياسي والعسكري، حيث استطاع القعيطي القضاء على مطامعه وأحلامه، وبقي الصراع محتدمًا بين الكثيري والقعيطي، واستطاع كل منهما تأسيس دولته في القطر الحضرمي، لكن لم يستطع أي منهما بسط نفوذه على كامل حضرموت. وبقيت المعارك سجالًا بينهما يحاول كل واحد منهما بسط نفوذه على أكبر قدر من الأراضي والبلدان الرئيسة كالشِّحر وسيؤون وتريم وشبام وغيرها.

يذكر المستشار (إنجرامز) في كتابه (حضرموت): **"أما أهم المشاكل التي تواجه حضرموت فهي خلق علاقات طيبة بين القعيطي والكثيري على أساس التعاون والثقة المتبادلة، وترسيخ حق كل منهما في بلده. ولا أخفي قناعتي بأن كثيرًا مما حدثتني به السلطات القعيطية عن نشاطاتهم هو مثالي جدًا. كي تصبح حضرموت بلدًا غنيًّا. لكن الحاكم العاقل هو ذلك الذي يمكن أن يحقق الكثير بالموارد المتاحة له، وبها يعطي رعيته الرخاء الأكثر".**

لقد كان الحسد والتنافس محتدمًا بين الشخصيات الثلاث التي كانت تعيش في الهند، والتي يطمع كل واحد منهم لتأسيس دولته على أرض حضرموت، وكانت الشخصيات الثلاث مقرّبة من نظام حيدر أباد، وكانت لهم رتب عسكرية مرموقة في الجيش العربي في الهند، وكانوا يمتلكون إقطاعيات كبيرة وأنصارًا ونفوذًا. وكان كل واحد منهم يحلم بالملك ويطمع في تأسيس مملكته على أرض حضرموت. ومما يؤسف له أن جميع تلك الأموال والثروات والسلطان والجاه لو أنها سُخّرت لبناء حضرموت ونهضتها لكان الأمر على خلاف ما عانت منه البلاد من تخلف اجتماعي وثقافي واقتصادي ومن إزهاق للأرواح من أجل شهوة الحكم.

في عام ١٣٤٦هـ أُبرمت معاهدة بين الحكومتين (القعيطية، والكثيرية) على أن: تتعاون الدولتان على الإصلاح وإقامة الأمن والعدل وتسكيت القلاقل والفتن بالوسائل السلمية، وإن لم تنفع الوسائل المذكورة تستعمل القوة المستطاعة. وأن تلتزم كل من الدولتين أن تُقاطع أي قبيلة تطغى على الدولة الأخرى وقت الخصومة والبراء، وأن تجتهد الدولتان في اتخاذ الوسائل اللازمة لتأمين السبل وتخليص المساكين ونحوهم من تأثير المخاصمات والفتن التي تقع بين القبائل.

إن أوجز وصف لتلك الإمارات المتناحرة على السلطة، هو ما ذكره المؤرخ (الشاطري) بقوله: **"إن دولة كل من هؤلاء الأسر التي توارثت السلطنة على حضرموت لها مدٌّ وجزْرٌ وانبساطٌ وانكماش، وقد يعتريها الضعف حتى يكاد يقضي عليها، ثم تنبعث مرة أخرى من جديد ويتجدد شبابها، كما أن نهاية زمن السابقة يكون بداية زمن اللّاحقة. وقد ويطول هذا الزمن المشترك بينهما يتنازعان فيه البقاء حتى تتغلب القوية على الضعيفة، كما يقع هذا كثيرًا في التاريخ".**

يوجز (إنجرامز) -مستشار السلطنة البريطانية في عدن- شخصية اليافعي وتحليله لها بقوله: **"الطابع العام لليافعي في بلاده هو التفكّك. ففي جبالهم لا يمكن أن يخضعوا أنفسهم للسلطة. لذلك قد يرى المرء الأمر غريبًا لأول وهلة كيف تنجح القبائل اليافعية حين تهاجر إلى بلد في إنجاز مهامهم. فهم في بلادهم فقراء بائسون بالرغم من أن البلاد - مقارنة بغيرها من أجزاء الجزيرة العربية - خصبة والناس منتعشون. إنهم لا يثرون في الخارج فحسب، بل يتبوؤن مناصب السلطة أيضًا. لقد أسّسوا إحدى أقوى الأسر في المحمية على مساحة واسعة نسبيًّا. وقد يُعزى ذلك إلى أن اليافعي لا يعتبر نفسه خاضعًا لأحد. لكنه حريص في نفس الوقت أن يفرض سيطرته على الآخرين". ويقول عن وضعهم في حضرموت: "إن كثيرًا من الأسر الحاكمة في المحمية ليست من قبائل تلك المناطق، إلا أنهم قد انصهروا واستوعبتهم مجتمعاتهم. لكن سلاطين الدولة القعيطية في حضرموت ظلّوا غرباء أجانب".**

ويذكر (إنجرامز) أن السبب يبدو في الشخصية اليافعية. ولعل الرحّالة البريطاني (جيمس بينت) قد أوضح شيئًا من ذلك في مذكراته عندما وصف لباس ومظهر السلطان (غالب القعيطي) بقوله: "يرتدي (غالب) ملابس حريرية مختلفة ذات اللون الأحمر الداكن، والسراويل الممتازة. تتلألأ سيوفه وخناجره بالأحجار الكريمة، ويتباهى بعصا ذهبية في يده؛ ونظرًا لشحّة المياه في الشحر، فقد كان يرسل غسيله المتسخ على القوارب الشراعية إلى بومباي ليتم غسله"، ويظهر الفرق شاسعًا بين ما كان يحرص عليه (إنجرامز) من اللباس العربي المناسب للبيئة الحضرمية وبين لباس السلاطين القعيطيين المقتبس والمنقول من الثقافة الهندية. بل ويذكر إنجرامز في مذكراته هذا الأمر بوضوح حيث يقول: **"ونظرًا للصفات الاستثنائية للناس، كان علي دائمًا أن أتصرف كما لو كنت واحدًا منهم. بناءً على طلبهم ارتديت نفس الملابس التي كانوا يرتدونها"** ويردف قائلًا: **"أعتقد أنه وبفضل العيش وفقًا للعادات المحلية والعمل بشكل وثيق مع الناس؛ تمكنّا من إنجاز وتحقيق الكثير من الأشياء. ولهذا ما يتم بمبادرة مني لم يثر أي تساؤلات أو اعتراضات، لأنه لم ينظر إليه على أنه فكرة لشخص غريب ينفذها لمصلحة حكومة أجنبية".**

المستشار البريطاني
وليام هارولد إنجرامز

السلطان
صالح بن غالب القعيطي

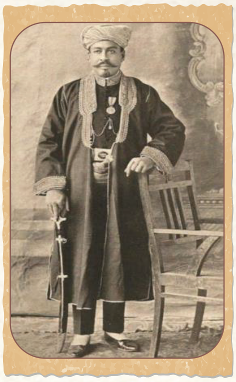

السلطان
عوض بن عمر القعيطي

أما عند حديثه عن الكثيري فيذكر إنجرامز أن **"الكثيري من السكان الأصليين لحضرموت؛ أو أنهم على الأقل قد استقروا منذ فترة موغلة في القدم حتى أصبحت تعنيهم عبارة أبناء الأرض التي يسكنونها. كما أصبحت أسرتهم إحدى الأسر الأهلية. وفي يوم ما كان آل كثير حكام حضرموت وامتد نفوذهم بعيدًا"**. ويذكر أن نظامهم أيضًا نظامًا قبليًّا حيث يتم انتخاب السلطان من بين العائلة التي استأثرت بالنفوذ. وربما يكون هذا الفارق في الانتماء للأرض هو أحد أسباب الصراع الذي دام فترات طويلة بين السلطنتين، وهذا ما جعل (إنجرامز) يوضح ذلك بقوله: **"هناك شعور عميق بعدم الثقة في العلاقة بين السلطان القعيطي والكثيري. ويمكن أن يفهم المرء أسباب ذلك حين يتفحص تاريخ البلاد، وحين نعرف أن الكراهية في الشرق لا تطويها السنون، بل تظلّ دفينة في النفوس. وقد تولّد لدى الكثيري بلا شك حقد على أولئك الذين حرموه من حكم بلاده. ويضمر القعيطي تخوفًا أن يفقد ما قد حققه. وكان يدرك جيدًا أنه بدون سند الدولة البريطانية فقد يعقد الكثيري عزمه ضده بسند من أهالي حضرموت الأصليين ويطردونه على أساس أنه غازٍ لأرضهم"**.

شبام مسرحًا وميدانًا لصراع الدويلات:

بحسب (د. صالح باصرة) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة عدن، فإن شبام ولموقعها الجغرافي كمدينة تتوسط مدن وقرى وادي حضرموت، فاحتلالها يساعد على احتلال بقية مدن الوادي أو حماية هذه المدن. كما أن بناء المدينة الذي يأخذ شكل القلعة الكبيرة المكوّنة من منازل عالية متلاصقة ببعضها البعض، وهو الأمر الذي يغري

بجعلها مركزًا للدولة يصعب النفاذ إليه. كذلك الأهمية الاقتصادية للمدينة، فشبام تعدّ المركز التجاري الأول في حضرموت فهي كما قال المؤرخ صلاح البكري: **"شبام من الناحية الاقتصادية قلب حضرموت وحلقة الاتصال بين البلاد في المناطق السفلى (حدري) وبين بلاد العوالق واليمن فجميع القوافل ترد إليها وتباع في سوقها".**

تلك المغريات جعلت مؤسس نواة الدولة القعيطية الجمعدار (عمر بن عوض بن عبد الله القعيطي) الذي تربى وتعلم في شبام ثم سافر إلى حيدر أباد بالهند، جعلته يحرص على أن تكون شبام أول هدف لخطته التوسعية. وبالتالي أرسل أبناءه إلى حضرموت لتنفيذ خطته في إنشاء الدولة الجديدة، وبعد استكمال بناء قواته وتحت مبرر بدعم أبناء قبيلته اليافعية التي استنجدت به لدعمها في صراعاتها مع آل كثير زحفت قوات القعيطي نحو شبام وفرضت عليها حصارًا شديدًا، وبسبب شدة الحصار وخوف الأمير الكثيري من تمرد سكان المدينة عليه نتيجة معاناتهم التموينية بسبب الحصار؛ دعا إلى إنهاء الحرب والتصالح مقابل تنازله عن نصف المدينة للقعيطي.

ولكن مناصفة مدينة شبام كان أمرًا مؤقتًا في نظر الطرفين المتحاربين فهو لا يعدو أن يكون هدنة مؤقتة كي يستعيد كل منهما أنفاسه ويعيد ترتيب قواته استعدادًا لمعركة احتلال نصف الطرف الآخر. كان السلطان الكثيري المتضرر الأكبر من صلح مناصفة شبام فقوات القعيطي لم تعد تحاصر شبام؛ بل أضحت توجد داخل المدينة ذاتها، لذا ظل كل طرف منهما يتربص بالآخر.

إن الوضع العسكري المعقّد الذي خلقته اتفاقية المناصفة جعلت الأسلوب التآمري هو الأسلوب المفضل لحسم الأمر لمصلحة أحد الطرفين، وبدأ كل طرف يحيك المكائد لخصمه للقضاء عليه، إلى أن تمكن القعيطي من قتل خصمه عبر مكيدة وبهذا الأسلوب التآمري تمكن من تحقيق كامل سيطرته على شبام. ولكن الأهمية الاستراتيجية لشبام دفعت قبائل آل كثير إلى مواصلة كفاحهم من أجل استرداد المدينة.

استمر الصراع القعيطي الكثيري فترة من الزمن، ولكنه انتهى بسيطرة القعيطي الكاملة على مدينة شبام التي أضحت عاصمته في حضرموت الداخل والمكلّا عاصمته الأولى. ولم تتوقف أطماع الأسرة القعيطية عند حدود شبام ومدن الساحل مثل الشِّحر والمكلّا بل اتجهت أنظارهم صوب سيؤون وتريم. وكانت شبام في نظر الأسرة القعيطية منطلق توسعاتهم السابقة والقادمة.

لقد دعمت السلطات البريطانية توسعات الأسرة القعيطية وذلك كجزء من خطتها الاستعمارية الهادفة إلى إعادة ترتيب الأوضاع السياسية في جنوب اليمن لتمكينها من

تثبيت نفوذها في المنطقة. وكان ثمن الدعم البريطاني للسلطة القعيطية هو توقيع معاهدة الحماية عام ١٨٨٨م وفيما بعد معاهدة الاستشارة عام ١٩٣٧م.

ولكن دوام الحال من المحال ففي سبتمبر من عام ١٩٦٧م وبعد سقوط عاصمة السلطنة المكلّا، تمّ إنهاء السيطرة القعيطية على شبام من قبل تنظيم الجبهة القومية في المنطقة وبذلك انتهت صفحة من تاريخ المدينة مليئة بالصراعات الدموية، وصفحة من تاريخ شبام كمدينة حدود في حضرموت الداخل.

تمكنت الجبهة القومية من الاستيلاء على السلطة في معظم إمارات وسلطنات جنوب اليمن من خلال الكفاح المسلّح، ولكن الأمر أيضًا لا يخلو من مساعدة بريطانية ظاهرة أو خفيّة وسوف تكشف عنها الوثائق في المستقبل. وأعلنت بريطانيا في نهاية الأمر تخليها عن كل سلاطين وأمراء جنوب اليمن بما في ذلك اتحاد الجنوب العربي ودعت الجبهة القومية إلى التفاوض معها لاستلام السلطة في الجنوب وجرت المفاوضات بين بريطانيا والجبهة القومية في جنيف في الفترة من ٢٢ نوفمبر إلى ٢٩ نوفمبر ١٩٦٧م. وفي الثلاثين من نوفمبر ١٩٦٧م غادر عدن آخر جندي بريطاني وكذا المندوب السامي البريطاني وأُعلن في صباح ذلك اليوم عن استقلال الجنوب وميلاد جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية. وذلك بحسب ما ذكره د. صالح علي باصرة في كتابه القيم (دراسات في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر). وبحسب المؤرخ الروسي (روديونوف) أنه **في الدولة المستقلة في جنوب اليمن أُلغي التقسيم الطبقي، وفقد السلاطين وشيوخ القبائل سلطتهم ومنع التخاطب بالنداءات المهينة: عبد، ضعيف، مسكين، وحلّت محلّها كلمات عامل وفلاح، ويضيف أيضًا: إن إلغاء التقسيم الطبقي للمجتمع قد بدأ قبل إحراز الاستقلال بعشرات السنين. فالخلاف الإرشادي - العلوي في الثلث الأول من القرن العشرين قد قوّض الاحتكار الديني للسادة. وفي الأوساط التجارية الحضرمية التي تكونت في الخارج، تراجعت العلاقات الطبقية إلى المرتبة الثانية. كما أن اتجاه مركزة الحكم السلاطيني والإدارة البريطانية قد سلب الزعامات المشيخية وعدد من القبائل دورها التقليدي** وهذا ما يطلق عليه (روديونوف) التوحيد السلالي لسكان جنوب اليمن والذي يساعد على وجوده وحدة اللغة والدين وهو ما يخفف الانقسام الطبقي المتخلّف.

يقول (روديونوف) بعد خروج بريطانيا من حضرموت: **"لكن التغيرات الاجتماعية والسياسية في المجتمع الحضرمي لم تسِر كما خُطِّط لها في لندن، عندما خرجت بريطانيا من عدن وجنوب شبه الجزيرة العربية (بلا مجد، ولكن أيضا بدون كارثة)".**

نجحت بريطانيا عبر إنجرامز في توحيد القبائل المتنازعة بحضرموت عبر مزيج من الفهم للثقافة المحلية والضغط العسكري، فأنهت الصراعات القبلية، وحقنت الدماء، ورسخت أمنًا نسبيًا على الرغم من الدوافع الاستعمارية.

دور بريطانيا في إحلال السلام بين الدويلات والقبـائل المتنازعة

أجرت قناة تلفزيون حضرموت في برنامجها المميز (حوارات ثقافية) لقاءً مع الدكتور (صادق عمر مكنون) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، ونائب رئيس جامعة الأحقاف في حضرموت، وذلك تحت عنوان "دور إنجرامز المستشار البريطاني للسلطنة القعيطية في حضرموت"، أي دوره في إحلال السلام بين القوى المتصارعة والمتنازعة للسيطرة على حضرموت.

أوضح (مكنون) أن المستشار البريطاني إنجرامز كان محافظًا وذا خلفيّة دينية (مسيحية طبعًا)، وكان إنجرامز يشيد بما يعتقده ويتمسك به الحضارمة من تدين إسلامي، وأنه لا يجب المساس بعقيدتهم أو التصادم معها، حيث إن الشعب الحضرمي متمسك بها بقوة، وأن أي سياسات أو خطط أو إجراءات لإحلال السلام والوئام بين الطوائف المتقاتلة ينبغي أن يراعي هذا الأمر بشدّة، وأنه يجب احترام هذه المشاعر؛ لذا كان يمنع حتى دخول المبشرين بالمسيحية إلى حضرموت، ومنع شرب الخمر في حضرموت، مع وجوب احترام ثقافة أهلها، وأن هذا هو الطريق لكي تسود وتسوس هذا الشعب.

إن هذا المسلك والتوجه من إنجرامز في احترام ثقافة الحضارمة ودينهم ومشاعرهم، جعل بعض المفكرين والعلماء من أمثال الشيخ (عبدالله الناخبي) والشيخ (عبدالرحمن بكير) يعتقدون أن إنجرامز قد أسلم، ولكن (مكنون) يرجّح أنه لم يُسلم، بتأكيد من ابنة إنجرامز (ليلى) على الرغم من قراءته للقرآن وتعلم كثير من أمور وشؤون الدين الإسلامي لفهم طبيعة هذا الشعب وثقافته ليس إلا، ولم تكن سياسة إحلال السلام في حضرموت ناتجة من خلفيته الإسلامية ولكن لتحقيق مصلحة دولته بريطانيا كونه مستشارًا لها.

أطلق (مكنون) على إنجرامز لقب (سلطان حضرموت غير المتوّج)، ذلك لكونه عاش مشاعر الناس واقترب منهم وفهم ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم وتعمق في فهم عقيدتهم حتى أنه كان يرتدي ملابسهم ويتشبه بهم ويأمر جنوده كذلك باللباس الحضرمي، على خلاف ما كان يلبسه السلاطين القعيطيين من اتشاح ولبس للملابس الهندية، كونهم عاشوا هناك في الهند فترات طويلة من أعمارهم. وهذا مؤشر إلى محاولة إنجرامز التعايش مع هذا الشعب حتى في لباسه ومظهره وأن يقترب من قلوبهم، وألا يكون بعيدًا عنهم في تقاليدهم وثقافتهم، واللّباس جزء من ثقافة المجتمع بلا شك. وقد أشاد بعض المؤرخين بهذا السلوك من إنجرامز واعتبروه ذكاءً ودهاءً منه. وقد أثمرت جهوده وتصرفاته وحنكته في تحقيق كثير من مآربه.

لقد كانت حضرموت تعيش حالة من التأزّم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، والصراع الدامي للسيطرة على البلاد من شتى الطوائف والدويلات والقبائل وذوي النفوذ والمال والأطماع، حتى وإن صلحت نيات بعضهم، وذلك قبل سيطرة بريطانيا على اليمن وبسط نفوذها على عدن وقبل قدوم إنجرامز أي قبل ثلاثينيات القرن الميلادي الماضي،

فقد كان الصراع ما زال محتدمًا في حضرموت، مما تسبب في الهجرات والتخلف في النواحي التعليمية والأمنية والصحية والزراعية والاقتصادية بصفة عامة. ويذكر الدكتور (عبدالقادر باعيسى) في معرض تعليقه على كتاب (أيامي في الجزيرة العربية - حضرموت وجنوب الجزيرة) للكاتبة الرحّالة (دورين إنجرامز)، يذكر كيف كانت تدار الأمور وعلى أي شاكلة حيث يقول: "لم يكن في عام ١٩٤٣م حكومة ذات إدارة منظمة لا في السلطة القعيطية ولا الكثيرية وكان السلطانان هما اللذان يسيران الأمور شخصيًا تقريبًا بمساعدة سكرتير ومسؤول خزينة وقاض وقائد قوات، وإن كان للجهاز العسكري للسلطنة القعيطية شيء من الهيبة". ويوضح باعيسى بأن الأمن لم يكن سائدًا بصورة كبيرة سوى في سلطنات القعيطي والكثيري، وما عدا ذلك يوضحه بقوله: "والحق أنه في مثل ذلك الوضع لا يخطر على البال إلا الأمن الذي كانت تتمتع به بصورة أكبر من غيرها مدن الدولة القعيطية والكثيرية (المكلا وتريم وسيؤون) حيث تبنى القصور ويسود الأمان والسلام والغناء ولعب الورق، وما عدا ذلك فليس إلا الثأر والبق والبعوض في القرى يستقبلك في غرف الاستقبال".

لم يكن موضوع إحلال السلام بين القبائل والقوى المتصارعة في حضرموت أمرًا سهلًا وهينًا كما يبدو، ولم تكن جهود إنجرامز مجرد إعداد وكتابة وثيقة للصلح والشروط يوقع عليها الأطراف وينساقون لما فيها من بنود، ولكن الأمر كان أشق من ذلك وأبعد، فقد كان كل طرف من الأطراف المتنازعة متمسكًا بما تحت يده من الأراضي والنفوذ والسلطة والامتيازات والمصالح، ولا يرغب في التفريط فيه أو التنازل عنها لغيره. ذلك أن العقلية القبَليّة ترفض الرضوخ للغير وخاصة عندما يكون هذا الطرف قرينه ومتساوٍ معه في القوة والمكانة الاجتماعية أو المادية. وكان إنجرامز متفهمًا لهذه العقلية تمامًا، فقد حاول قبله صلحاء وعقلاء من أمثال الشيخ (أبوبكر بن شيخ الكاف)، حاول عقد صلح بين القبائل قبل إنجرامز وبذل جهودًا وأموالًا لتحقيق ذلك ولكن جهوده لم تثمر شيئًا. كذلك قام مصلحون ووسطاء من شبام بإجراء محاولات لإحلال السلام في حضرموت بعد أن أنهكتهم الصراعات والثارات، سواء فيما يتعلق بالسلطنات فيما بينها، أو فيما بينها والقبائل، أو فيما بين القبائل نفسها، وذلك قبل فترة طويلة من صلح وهدنة إنجرامز.

كانت جهود إنجرامز تقوم على الالتقاء بالقبائل وأن يعرض عليها الصلح فكانت بعض القبائل تقبل بالصلح وتراه محقِّقًا لما تراه من أمن وسلم وسلام وحفظًا لحياة وأرواح أبنائها، بينما تراه قبائل أخرى ضياعًا لمصالحها وخضوعًا لغيرها، ولم تكن تلك القبائل الرافضة للصلح تدرك أنها أمام قوة عظمى لديها من القوة والسلاح ما يمكّنها في فرض الصلح إن شاءت، ولكن بثمن غال من الدماء والتضحيات، وهذا هو ما حصل منها بعد عدة إنذارات وتحذيرات وتهديدات لهم باستخدام القوة في حالة رفض الاتفاقيات.

وكان مصير القبائل الرافضة للصلح أن استخدم البريطانيين سلاحهم الجوي في إرغامهم على التوقيع على المعاهدات ووثائق الصلح.

بحسب الكاتب الروسي (ميخائيل روديونوف) فإنه في ثلاثينات القرن العشرين، كان يوجد في حضرموت الداخل أكثر من ألف فرع من القبائل المستقلة الأبرز منها: المناهيل (على أراض واسعة من ثمود في الشمال وحتى الساحل في الشرق)، الحموم (من وادي المسيلة وحتى مدينة الشِّحر)، سيبان (من الساحل عند مدينة المكلّا وحتى وادي دوعن)، الصيعر (في المناطق الصحراوية إلى الغرب وإلى الشرق من الوادي الرئيسي)، نهد (غالبا في وادي الكسر وفي مجرى أسفل وادي عمد، تحالف قبائل الشنافر (الكثيري العوامر الجابري، ممن تقع أراضيهم بين مدينتي شبام وتريم)، الدّين (إلى الشمال وفي الهضبة بين وادي عمد ووادي دوعن).

لم يكن استخدام القوة من بريطانيا بغرض إزهاق الأرواح أو إتلاف الممتلكات، ولكن ليدرك الأطراف المتنازعة أن القوة تغلب الشجاعة، وأن البريطانيين يملكون من السلاح الجوي والقنابل وغيرها ما لا تملكه القبائل من بنادق وأسلحة خفيفة لا تجدي نفعًا. لذا رضخت تلك السلطنات والقبائل وقبلت بتلك الاتفاقيات بعد أن قامت قوات السلاح الجوي برمي مجموعة قذائف خارج المناطق الآهلة بالسكان؛ ليعلم المعارضين أن الخطب جلل وليس كما يقول الحضارم "مسألة قَبْوَلَة". يقول المستكشف البريطاني (جون فيلبي) والذي يطلق عليه أيضًا اسم (عبدالله فيلبي): **"لا يستطيع المرء حقيقة أن يتخيل أي شيء أشد رعبًا من قصف جوي بالقنابل لا يُقدر أن يُرد عليه بمثله".**

بحسب ما يذكره (د. عبدالله الجعيدي) في تحليله لكتاب رحلة (ميولين) لحضرموت عام ١٩٣١م، فإن المطالبة بتدخل بريطانيا ولو بالقوة لترويض تلك الصراعات المحتمدة بين التيارات المختلفة؛ كان مطلبًا أهليًا قبل أن يكون رغبة بريطانية، حيث تكشف الرحلة -رحلة ميولين- عن رغبة قوية مبكرة عند السيد (أبوبكر بن شيخ الكاف) في إحلال السلام، وأنه كان يرى في سلاح الطيران البريطاني الخيار الاستراتيجي لقبول القبائل للسلام تحت تهديد القنابل، وهذا الطرح في زمن الرحلة وهو عام ١٩٣١م؛ أي قبل خمس سنوات من قيام البريطانيين فعلًا باستخدام الطائرات؛ لإخضاع القبائل المتمرِّدة أو الرافضة للهُدنة العامة. فالحضارمة خاصة البدو منهم كانوا يحتاجون إلى ما يشبه الصدمة؛ حتى يقبلوا ما يتمنَّونه في دواخلهم من الجنوح إلى السلام والأمان، وحقَّقت هذه السياسية أُكُلَها، وعمَّ السلام في حضرموت بفضل عناصر كثيرة، أهمّها القبول الجمعي للهدنة العامة، وسميت هذه الهدنة أو السلام (سلام إنجرامز)، ويحلو للبعض تسميته (سلام الكاف) نسبة للسيد أبوبكر الكاف، والذي عُرف ببذله جهودًا كبيرة في الوصول لهذه الهدنة والصلح وإحلال السلام، وقد ذكر إنجرامز ذلك بوضوح في مذكراته وأثنى عليه كثيرًا لكرمه

وسخائه وبذله وتواضعه وحرصه على استقرار حضرموت، وكان الكاف مشاركًا بشكل نشط وفعّال في المفاوضات مع زعماء القبائل وغيرهم من القادة التقليديين في حضرموت.

كانت بريطانيا تخشى من استغلال دول أخرى للخلافات القائمة بين القبائل، وتقوم بدعمها في تلك الصراعات خصوصًا وأن بعض تلك القبائل مثل قبيلة الحموم كان موقعها على ساحل البحر العربي، وأن استعانتها بقوى خارجية سوف يربك المشهد القائم، ذلك أن أطماع الدول الأوروبية (إيطاليا وألمانيا وغيرها) في تلك الفترة للتوسع كان على أشدّه، لذا أولى إنجرامز أهمية كبيرة لتلك القبيلة وحرص على أن تكون أحد أطراف اتفاقيات السلام والصلح بين القبائل. بالتالي دخلت تلك القبائل والسلطنات في مؤسسات الدولة وانخرطت في جيش البادية والجيش النظامي، وأصبحت أحد مكونات النظام الرسمي القائم في تلك المرحلة. ولك أن تتخيل أكثر من (٣٠٠) قبيلة بما فيهم قبائل الكثيري وبن عبدات والحموم وغيرها التي وقعت على اتفاقية ما يسمى باتفاقية أو هدنة إنجرامز.

لجنة أمان حضرموت التي تشكلت سنة ١٣٥٦هـ بعد توقيع الهدنة بين القبائل، وفي الصورة السلطان علي بن منصور الكثيري والسلطان علي بن صلاح القعيطي والسلطان عبد الله بن محسن الكثيري، والزعيم أبي بكر بن شيخ الكاف والصدر سالم بن جعفر بن طالب والصدر عوض عزان بن عبدات والمقدم العبد بن علي بن أحمد بن يماني التميمي. (المصدر: مجلة حضرموت الثقافية)

أدركت القبائل عندما عمّ السلام وانتهت النزاعات والحروب وإزهاق الأنفس والاعتداءات على الأموال والممتلكات، أن ما كانوا فيه قد أفسد أكثر مما أصلح -لو افترضنا أن فيه إصلاحًا- وأنهم عاشوا حقبة من الزمن في جاهلية حمقاء ونعرات قبلية أقرب ما تكون لما كان عليه عرب الجاهلية قبل الإسلام، وأن حالهم كان كما قال (دريد بن الصمّة) الشاعر العربي الجاهلي من قبيلة بنو جشم من هوازن:

وَهَلْ أَنَا إلّاَ مِنْ غَزِيَّةَ إِنْ غَوَتْ غَوَيتُ وإِنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةَ أَرْشُدِ

على قدر كرهنا للاستعمار واحتلال الأوطان والتدخل الأجنبي في شؤون البلاد، ولكن الحق يُقال إن ما قام به إنجرامز، مستشار بريطانيا في تلك الفترة؛ كان حدثًا وعملًا إيجابيًّا وكان مردوده على حضرموت بالغ التأثير والنفع، وإن كنا تمنينا أن يحدث ذلك الصلح والاتفاق بيد أحد الصالحين والحكماء أو فريق منهم من أهل حضرموت، ولكن شاء الله إلا أن يكون من غيرهم. بغض النظر عن نية بريطانيا من الصلح في تحقيق مصالحها السياسية والجغرافية والاقتصادية والتوسعية والاستعمارية، إلا أنه حقق كثيرًا من الأمن والاستقرار والسلام وحقْن للدماء، وهذا في حد ذاته مطلب رئيس وأساس إن لم يكن بالعقل والمنطق فليكن بقوة السلاح، فكم من أرواح أزهقت في تلك النزاعات والحروب والصراعات، وكم من أموال نهبت، وكم من عائلات فقدت معيلها ورب أسرتها، ولا نعلم حال الأسرة والأطفال بعد فقدهم رب الأسرة هل ماتوا جوعًا؟ أم لم يكن لهم نصيب من التعليم وضاعت حصتهم في حياة كريمة؟

كان من أبرز شروط الصلح كما ذكرها (كرامه بامؤمن) في كتابه سالف الذكر:

1. **قبول سلاطين آل كثير بمعاهدة الحماية البريطانية على حضرموت التي وقعها السلطان القعيطي مع الإنجليز عام ١٨٨٨م.**
2. **إقرار الطرفين (القعيطي والكثيري) بتبعية حضرموت لبريطانيا وتحكيم والي عدن البريطاني في أي خلاف ينشأ بين الطرفين القعيطي والكثيري.**
3. **التزام الطرفين باحترام السادة العلويين والعمل معًا لإصلاح حضرموت ورقيّها.**

انقسم الناس في حضرموت بين راضٍ بهذا الصلح راغب في أمن شامل مؤمل في فرصة لإصلاح الوطن، وبين ساخط عليه خشية عواقبه. وسطّر شعراء كل طرف أبياتهم بين الرضا والسخط. وفي جميع الأحوال كان حفظ الدماء هدفًا رئيسًا تحقق من جراء هذا الصلح، وقد عانت حضرموت من الفُرقة والحروب ما يكفيها من الجهل والتخلف وضياع الأنفس والثروات.

بعد الصلح بدأ الإحساس بالوحدة الحضرمية وبدأت مؤسسات الدولة في القيام بمهامها التعليمية والصحية والأمنية والتنظيمية وغيرها. وإن كانت الإصلاحات التي نتجت

عن الصلح لم تكن بصورة كبيرة وموسّعة كما يذكر (د. مكنون)، حيث إن بريطانيا كانت حريصة على تكون تلك البرامج والإصلاحات تحت نظرها وبإشرافها، فلم تكن البعثات التعليميّة تمنح لبعض الدول كمصر والعراق لوجود أنظمة مناهضة لها، بل كانت للسودان لوجود السيطرة البريطانية عليها وتحكمها في المناهج العلمية والتعليمية والثقافية. إلا أن (د. مكنون) في مقدمة كتابه (إنجرامز سلطان حضرموت غير المتوّج) يؤكد أن هارولد إنجرامز قد قام بتنفيذ مهامه "**بنجاح فاق كل التوقّعات، فأصبح رائدًا من رواد السياسة البريطانية الاستعمارية في المنطقة، إذ استطاع إخضاع أغلب القبائل الحضرمية لسلطة الدولة، ونظّم مؤسسات الدولة، الإدارية والسياسية والاقتصادية والعسكرية على أُسس حديثة، وفرض قيمًا وأنماطًا ثقافية أوروبية في منطقة كانت مغلقة في وجه تأثيرات الثقافة الأوروبية. لقد أدّى ذلك إلى إحداث تغيرات عميقة في البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمع**".

هذا الصلح لم يسلم من انتقادات أو قُل ملاحظات، فيذكر (د. مسعود عمشوش) في هوامشه ومراجعته لكتاب (إنجرامز سلطان حضرموت غير المتوّج) للدكتور (صادق عمر مكنون)، يذكر رأي المؤرخ (محمد بن أحمد الشاطري) وموقف حضارمة المهجر من اتفاقية الصلح والتي أسماها انقلابًا، حيث يقول: "**الحضرميون في المهجر تجاه هذا الانقلاب ينقسمون إلى طوائف ثلاث: أما طائفة: فبالنظر إلى ما أعقب هذا الانقلاب من استتباب الأمن وإخماد للفتن وتسكين للقلاقل والفوضوية والاضطرابات، فتقابله بشعور حسن وودي، وترتاح له بعض الارتياح. وأما طائفة: فتعارضه أشد المعارضة على ما فيه من مضارٍ ومنافع ولا تشعر نحوه إلا بالمقت والكراهية المتناهية، في حين تبرز الطائفة الثالثة تجاهه بصورة لا شعورية، وهذا لعدم فهمها مثل هذه الشئون ومترتباتها**" وبحسب (د. عمشوش) يبدو أن اندلاع الحرب العالمية الثانية بعد أقل من سنة من توقيع آل كثير على اتفاقية الاستشارة مع بريطانيا ١٩٣٩م، لم يتح لإنجرامز تحقيق كثير من الإنجازات الإيجابية في وادي حضرموت. فمنذ سنة ١٩٤٠م لم يتردد سكان الوادي من التذمر من سياسات إنجرامز. وهناك من حمّل الاستعمار البريطاني مجسدًا في إنجرامز مسؤولية حدوث المجاعة في حضرموت بين الأعوام ١٩٤٢ و١٩٤٦م. أما ما يذكره (إنجرامز) نفسه عن هذا الصلح والاتفاقيات في كتابه (حضرموت ١٩٣٤/١٩٣٥) فهو: "**يكفي ما قيل عن الاتفاقية. لكن ما يؤسف له أن روحها لم تنفّذ لأن عدم الثقة ظلت تسيطر على الوضع. وتبرز أمثله لعدم الثقة منها الاشتراط بأن تتم اتصالات الكثيري مع الدولة البريطانية عبر القنوات القعيطية. فلو لم تكن هناك روح عدم الثقة لما كانت هناك ضرورة لهذا النص. كما أن بعض النصوص كالتعاون تظل أحرفًا ميّتة لأن أية محاولة للدفع بعجله التقدّم في الدولة الكثيرية سيلقي معارضه من جانب القعيطي**".

سلطنات وإمارات ومشيخات جنوب شبه الجزيرة العربية

يذكر إنجرامز في مذكراته، أن من الآثار الإيجابية للصلح والهدنة أن انهالت علينا الوفود وخطابات الشكر وأعربت النساء عن امتنانهن للأمان الذي أصبح أزواجهن ينعمون به. وعندما وقّع الجعدة في حريضة كان من النساء من أخذن يبكين في الشوارع من الفرحة، وكان انخفاض مبيعات الأسلحة أحد أبرز المؤشرات اللّافتة على السلوك المتغيّر في البلاد. ووصل البدو إلى درجة من الانصياع وحسن الخلق ليس لها مثيل. بل إن العُقّال منهم شكرونا على القصف. وأنه بفضل الأمن زادت كثيرًا البضائع المستوردة التي حملتها السفن الثلاث الأخيرة، وأن أجور النقل على الطرق انخفضت في بعض الحالات بمقدار ٥٠ في المئة. وإجمالًا، كان هناك ما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ من التوقيعات على اتفاقيات الهدنة؛ مما يدل على مدى التشظّي التي كانت عليه البلاد. ويضيف إنجرامز أنه عندما حلّ السلام، أجرى الناس تقديرات متحفّظة، قائلين: إننا بما فعلناه أنقذنا حياة عشرة أشخاص على الأقل في الشهر الواحد في منطقة وادي حضرموت وحدها. كان كل قبيلي هناك يمتلك سلاحًا، لم يكن من الأسلحة من الطراز القديم التي عفا عليها الزمن، بل كانت لديهم بنادق حديثة وسريعة.

كما يذكر إنجرامز أنه بعد أن عمّ البلاد الأمن والسلام كتب أحد (السادة) من ذوي الخلفيّة التاريخية يُظهر الوضع الذي كانت عليه حضرموت، حيث يقول: "لقد درستُ التاريخ الحضرمي من عام ٥٠٠ للهجرة حتى الوقت الحاضر، وقرأت العديد من الكتب

واستفسرت من علماء ومثقفين عن السلام العام في حضرموت، ومن التحرّيات الدقيقة التي تم إجراؤها لم أجد ما يثبت أن حضرموت من الحدود إلى الحدود - كانت تنعم بسلام شامل في أي فترة من الفترات سواء في العصور القديمة أو الحديثة".

من البشائر التي صاحبت الصلح والهدنة بين القبائل هي بدء هطول الأمطار في جميع أنحاء البلاد وقيل على نطاق واسع من إنها أغزر مطر شهدتها البلاد على مدى خمسة عشر عامًا، ولاحقًا شهد الجميع بأنها كانت أغزر الأمطار التي عرفها الإنسان على مدى عصور طويلة. وانتشر اعتقاد عام بأن نعمة المطر هي مكافأة من الله على حلول السلام. كما أنه بإحلال السلام هناك على حدود الصحراء، فإن الصحراء نفسها بدأت تصبح أكثر أمانًا، وأصبح القبيليون يأتون إلى العَبْر من غير بنادق.

أحد اجتماعات الصلح والسلام مع القبائل في حضرموت عام ١٩٣٧م

الخلاصة

يذكر صاحب كتاب (الإفادة في معرفة الصحابة من كندة وحضرموت) أن ما ذُكر من تاريخ حضرموت كان بمثابة وقفات مختارة من بعض ما كُتب ودُوّن ولعل الحقيقة أكبر مما توصف، ولعل الناظر إلى هذه الأحداث يلاحظ أن حضرموت وكندة أضعفتهما أولًا الحروب القبليّة قبل مجيء الإسلام، ثم جاء الإسلام وانتشر وخرج من القبيلتين أعداد وأفواج كبيرة قادة وجنودًا في الفتح الإسلامي واستقروا في البلدان المفتوحة مثل العراق، والشام، ومصر، وغيرها. ولمساحة إقليم حضرموت الكبيرة ولعوامل وظروف أخرى خاصة ظلم الولاة والجور وانتشار التذمر بين أوساط الناس؛ أدّى إلى التمردات والثورات. وبهذا تأثرت حضرموت كثيرًا بمنهج الخوارج، وكلما أخمدت ثورة أو حركة نشأت بعدها أخرى؛ لأن العنف الذي تخمد به هذه الحركات والثورات يولد عنفًا آخر. وقلّما تجد سلطة أحكمت قبضتها كليًا على حضرموت وإن حصل شيء من ذلك لم يدم طويلًا.

لقد مرت بحضرموت فترة من الزمن عمّ فيها الجهل وانتشرت البدع وزيارة قبور الأولياء الصالحين والتبرك بهم والحلف بأسمائهم والذبح لهم؛ اعتقادًا من الجهلة بأنهم ينفعون أو يضرون، وكانت تقام فيها عدة زيارات كزيارة قبر نبي الله هود -عليه السلام- الواقع قريبًا من وادي (برهوت) على بُعد مرحلتين من مدينة (تريم)، وزيارة أخرى لقبر الشيخ سعيد بن عيسى العمودي في بلدة قيدون في وادي دوعن في شهر رجب من كل عام. يجتمع الناس لحضور هذه الزيارة من القرى القريبة والبعيدة، وتأتي البوادي، وتجعل مسافة من شوارع البلد بمثابة دكاكين للبضائع المجلوبة من الهند وعدن وغيرهما. وتختلط القبائل وبينها العداوات والثارات، فلا يتعرض أحد لعدوه، احترامًا للبلد.

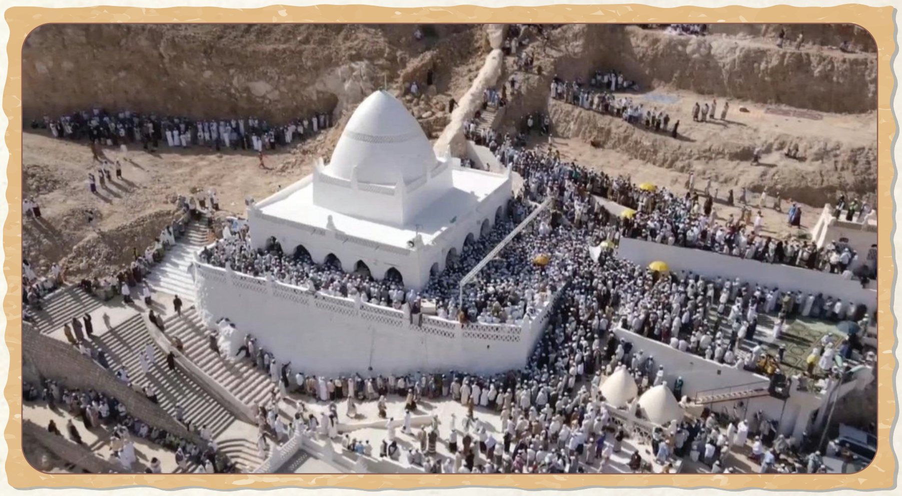

قبر نبي الله هود عليه السلام أثناء توافد آلاف الزوار للزيارة

ينقل (أ. د. عبدالله بن حسين البار) تحت عنوان (الهويّة الثقافية الحضرمية) كلمة للشيخ (محمد بن عمر باجمال) من كتابه (مقال الناصحين بحفظ شعائر الدين) ما كان عليه الجهل في القرن العاشر الهجري، حيث يقول: "**وقد عمّت البلوى في جهة حضرموت بعموم الجهل في أهلها، وبالجهل تفسد الأعمال والأحوال، وتخرّب البلاد والعباد وتشيع الفاحشة والفساد. فالجهّال أشبه بالشياطين في أقوالهم وأفعالهم، وأقرب إلى البهائم في طباعهم وحظوظهم**". ثم يضيف (د. البار) قول الحبيب (علي بن حسن العطاس) أيضًا أحوال أهل حضرموت في تلك الفترة بقوله: "**إن مثل غالب أهل حضرموت، التي هي من الساحل إلى مأرب، ومن عين با معبد إلى سيحوت كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت. قد شغلهم القوت عن عالم الملك والملكوت، وعمّتهم الغفلة باللهو عن اللاهوت والسهو عن الناسوت. فأعمالهم أعمال من يزعم أنه لا يموت وطبائعهم طبائع الخيلاء والتكبر والحسد والحقد والجبروت ممزوجة بالبراء كذا والباروت**".

ذكرت كتب التاريخ أنه كان يمارس في بعضها كثير من العادات المخالفة للشرع والعُرف والشركيّات، وقد تصدّى لها الدعاة والعلماء والمشايخ من خلال الدروس التي كانوا يلقونها في المساجد عبر سنوات طوال. وقد لاقوا عناء شديدًا ومعارضة كبيرة في بداية الأمر، ولكن "**الحَقُّ أَبْلَجُ والبَاطِلُ لَجْلَجٌ**" كما يقول المثل. وبحسب الكاتب (كرامة مبارك بامؤمن) فإن "**رواسب الوثنية العالقة في الفكر الحضرمي الإسلامي قد ذابت اليوم بفضل التربية والتعليم والوعي الإسلامي، كما أنها لم تكن قط إلا في معتقدات العوام والسذّج في المجتمع الحضرمي خاصة لدى الأميين من فلاحين وصيادين وعمال وبدو رحل ومن دونهم. واليوم وقد تحسنت ظروف المجتمع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية قد اضمحلت تلك المعتقدات ولم يعد لمعظمها وجود يذكر والحمد لله رب العالمين**".

لقد زار حضرموت العديد من الرحّالة والمستشرقين من ألمانيا وبريطانيا وهولندا وروسيا وغيرها وكتبوا عنها وعن تضاريسها وطبيعتها وعن أهلها وعاداتهم وطبائعهم وعن النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن مع الأسف لم يتم الاهتمام بكثير مما كتبوه أو ترجمته، حيث الإهمال لدينا واضح في دراسة الشعوب. فقد كانت حضرموت موطنًا للحضارات المعينية والسبئية والحميرية، وقد استمرت خلال ما يقرب من ألف وخمسمائة عام قبل ظهور الإسلام، وما تزال الآثار الباقية من الخزانات والسدود تدل على ذلك. ولعلّ الذي دفع بالأوربيين للسفر إلى حضرموت وجود الآثار القيّمة والمعالم الأثرية المهمّة مع ما في ذلك من الأخطار والمتاعب التي كانت تعترضهم لا سيما في البوادي حيث المسالك وعرة والماء شحيح والأمن كان مفقودًا.

كما أن الرحّالة الأجانب والمسيحيين على وجه الخصوص لم يكن مُرحّبًا بهم في حضرموت الداخل بشكل واضح، وبحسب (أحمد سعيد باحاج): **"لقد حالت العداوة المستحكمة لدى أهل المنطقة تجاه الغرباء خاصة المسيحيين منهم دون تسهيل مهمة الرحّالة والمستكشفين، لذا اكتفى كل منهم خاصة الرحّالة الأوائل بلمحة سريعة لقطاع محدود من الوادي العجيب - وادي حضرموت - وكل من حاول الوصول إلى قرية من قرى الوادي يجد نفسه على الفور مطرودًا إلى الخارج سعيد الحظ بنجاته من هلاك محقّق. أما زيارة المناطق المأهولة بالسكان فإن مثل هذه الزيارة لا تخلو من مصاعب وعقبات"**. لكن هذه التجارب المؤلمة المحفوفة بالمخاطر لم تذهب سدى. لقد أضاف هؤلاء الرحّالة إلى معلوماتنا المزيد منها حول المناطق الساحلية والداخلية مثل مينائي الشِّحر والمكلّا ووادي حضرموت ودوعن وعمد وحجر.

يقول الرحّالة البارون الألماني (هاينريش فون مالتزان): **"إن حضرموت عصيّة على الأغراب تمامًا مثل مكة المكرمة، لا بل إنها في الواقع أكثر استعصاء على الأوروبيين، لأنه في خضم المزيج الملوّن لشعوب الإسلام، الذي يتوجه سنويًّا إلى مكة المكرمة، يمكن للأوروبي، كما ذكرنا، إخفاء شخصيته. ولقد فعل العديد منهم ذلك، وأنا شخصيًّا لم أجد صعوبة بالغة في القيام به"**، يضيف أيضًا: **"وأما في حضرموت، من ناحية أخرى، فيعدّ مجيء شخص غريب حدثًا لم يسبق له تقريبًا مثيل، وتنتشر أخباره سريعًا من أقصى البلاد إلى أقصاها كالنار في الهشيم، وتلهب جميع الرؤوس، وغالبًا ما يتم تفسيرها بأشد المغامرات، وحتى بأكثرها جنونًا"**. ويذكر أنه إذا كان هذا الشخص الغريب مسيحيًّا، أو إذا وقع الشك بأنه كذلك، فالمخاطر التي يُعرّض نفسه إليها لا يمكن تخيلها، والأوصياء المتعصّبون للدين، الذين يسمون أرضهم بلد الدين أو بلد الإيمان أو بلد العلم يرون في حضور معتنق الديانات الأخرى أعظم تدنيس لأرضهم المقدسة. وليس ذلك فحسب، بل إنهم يتخيلون أنه بإمكانه التنصّت على بعض الأسرار الدينية في مدارسهم ومساجدهم وعلمائهم المطهّرين، ثم يستغلها قومه بدناءة لرفاههم الجسدي والروحي ببعض الفنون السحرية الشيطانية التي يعدّون أن جميع المسيحيين ضليعون بها. ويرى زعماء العالم الدنيويون في كل شخص غريب جاسوسًا لبعض الدول الأوروبية، وخاصة إنجلترا. (طبعًا الرحّالة يتحدث عن حضرموت في القرن التاسع عشر الميلادي).

يذكر الرحّالة الألماني (هانس هيلفريتز) في كتابه (الجنوب العربي المنسي) عن جهل العديد من الغربيين لحقيقة ووضع الجنوب العربي للجزيرة العربية أنه: **"قد أبقت جنوب الجزيرة العربية وهي الأكثر غموضًا في جميع البلاد العربية على مسافة بعيدة من أي تأثير أجنبي، ومنعت وبحق تغلغل الأوروبيين حيثما كان ذلك ممكنًا. ولم تكن البلاد الجنوبية**

المطلة على المحيطات العربية بلدًا موحدًا، بل مملكة، وحفنة من السلطنات، وبعض الدول الصغيرة التي لم أكن أعرف وجودها أكثر من أي شخص آخر في ذلك الوقت". ويذكر في موقع آخر من كتابه عن صعوبة التواجد في تلك البلاد لمن هم من ديانة غير الإسلام إذ يقول: **"يمثّل كل من الأوروبي والمسيحي في البلاد العربية المطلة على المحيط بجانب كل ما هو من أصول مسلمة في هذه المحافظات ظهورًا غريبًا... لدرجة أنه يصبح من المستحيل تقريبًا أن تجد سببًا مقنعًا للدخول إلى هناك، كما لو أن الجدار الصيني -سور الصين العظيم- انتقل داخل هذه البلد، مما يضمن لها أنها ليست بحاجة ملموسة للحراسة الصارمة".** ولكنه يلخص في النهاية تجربته بأنها تستحق العناء والجهد المبذول: **"إذا ما كان هناك شيء ما يُغري الباحث برغم كل صعوبات ومخاطر الرحلة في مناطق جنوب جزيرة العرب، فإنه أمل الغوص في التاريخ الذي يرجع لآلاف السنين لهذا الإقليم الحضاري، والذي لا يعرفه إلا القليل".**

وليست نية جميع الرحّالة والمستكشفين لحضرموت كما قد نتصور أنها لمجرد تدوين رحلاتهم وتحقيق فضولهم التاريخي والجغرافي أو حبًا في شعبها وأرضها، فبحسب (أحمد سعيد باحاج) **فإن معظم الدراسات الجغرافية عن حضرموت كتبها مؤلفون غير عرب، يرجع سبب ذلك إلى الأطماع الاستعمارية في ثروات البلاد منذ عهد الفراعنة والإغريق والرومان، حيث كانت منطقة حضرموت تمثل مصدرًا طبيعيًا لموارد البخور واللّبان كما أنها في الوقت نفسه تمثل منطقة عبور للتجارة بين الشرق والغرب.**

في الحقيقة لم تبرأ بريطانيا من الانتقادات في تعاملها مع شعوب أبناء البلاد التي احتلتها فقد ذكر الكاتب والمفكر والفيلسوف الفرنسي (بول نيزان) والذي زار عدن أثناء احتلالها من قبل البريطانيين في العشرينات من القرن الماضي؛ راصدًا العنصرية البريطانية في التعامل مع اليمنيين في عدن مقابل الامتيازات التي كان يحظى بها البريطانيون والذين قامت باستقدامهم، ولاحظ (نيزان) وجود فجوة طبقية هائلة بين المستعمرين البريطانيين والسكان المحليين، حيث كان الأوروبيون يتمتعون بامتيازات خاصة، مثل مساكن أفضل، أجور مرتفعة، وخدمات راقية، بينما عانى السكان المحلّيون من الفقر والتهميش، ويذكر أن البريطانيين استغلوا العمال اليمنيين بشكل قاسٍ، حيث كانوا يعملون في ظروف بائسة وبأجور منخفضة، كما تم استغلال الميناء كمركز تجاري يخدم المصالح البريطانية على حساب السكان المحليين، فضلًا عن ذلك كان هناك غياب شبه كامل للحقوق العمالية، مما أدى إلى معاناة واسعة بين الطبقات الفقيرة. ورصد الفيلسوف الفرنسي "نيزان" محاولات البريطانيين فرض ثقافتهم على عدن، حيث تم إهمال التعليم المحلي لصالح المدارس التي تخدم مصالح المستعمرين، وتم تحويل عدن إلى مدينة تجارية تخدم الإمبريالية البريطانية

بدلًا من أن تكون مركزًا ثقافيًا وعربيًا مستقلًا. ويضيف: **"أن عدن بدت وكأنها جزء من أوروبا، لكنها ليست إلا نسخة مشوهة مليئة بالقهر والاستغلال".**

كما رصد "نيزان" خلال زيارته التي استمرت عام القمع السياسي الذي مارسه الاحتلال البريطاني، حيث أشار إلى أن **أي مقاومة أو مطالبات بالحقوق من قبل اليمنيين كانت تواجه بقمع شديد من السلطات البريطانية، وكان الاحتلال يستخدم القوة العسكرية للحفاظ على السيطرة وإسكات أي احتجاجات محلية.** ورأى أن ما يحدث في عدن ليس **مجرد ظاهرة محلية، بل هو انعكاس للاستعمار الأوروبي في العالم العربي وأفريقيا وآسيا، واعتبر أن عدن تجسيدًا لوحشية النظام الرأسمالي والإمبريالي، حيث يتم نهب الموارد واستغلال السكان لصالح القوى الغربية.** ذكر "نيزان" هذه المشاهد التي عاصرها ولمسها بنفسه ودونها في كتابه (عدن العربية) ويقول في صفحات كتابه: **"كان البريطانيون يعيشون في قصورهم الفخمة، بينما يكافح السكان المحليون من أجل لقمة العيش في شوارع قذرة، تحت شمس لا ترحم، وفي ظل اقتصاد لا يعترف إلا بأرباح المستعمر".**

في بحثها سالف الذكر(د. نجلاء بن عقيل) بالمشاركة مع (د. عبدالعزيز بازرعة) عن الرحلات الأوروبية إلى حضرموت، أوضح الباحثان مجموعة من الدوافع لتلك الرحلات الأوروبية، وذكرا منها الرحلة الهولندية في عام ١٩٣١م أنموذجًا، فمن تلك الدوافع السياسية أن هناك عددًا كبيرًا من الحضارم يعيشون في مستعمرات هولندا في جزر الهند الشرقية، وأصبح لهم وزنٌ اقتصاديٌّ واجتماعيٌّ وسياسيٌّ. فكانت هولندا تريد أن تقف على الأوضاع في موطن الحضارم الأم عسى أن يساعدها ذلك في ضبط حكمها في مستعمراتها هناك. وكانت الحكومة الهولندية تشدد في تطبيق قوانين المهاجرة على المهاجرين الحضارم فكانت تحصرهم في جهات خاصة، ولا تسمح لهم بالتجول من بلد إلى بلد إلا بإذن خاص حيث كان الهولنديون منذ وقت مبكر يتوجسون من الوجود الحضرمي في مناطق نفوذهم في إندونيسيا، ومن أهداف الرحلة السياسية توثيق العلاقة بين الإدارتين الهولندية والبريطانية في المستعمرات.

وهناك دوافع اقتصادية لهولندا في حضرموت تمثلت في رغبتها السيطرة على الموانئ التي تسهّل لها نقل بضائعها إلى جزر الهند الشرقية حيث بدأ النشاط التجاري الهولندي في أوائل القرن السابع عشر بعد أن أصبح مركزهم التجاري في المخا من أهم مراكز تجارة البُن الذي كانوا يصدرونه إلى فروع الشركة الهولندية للهند الشرقية في شمال غرب الهند وبلاد فارس. كما أنّ للرحلة أهدافًا استخباراتية حيث حرص صاحب الرحلة على ذكر الكثير من الأرقام والإحصاءات الحسّاسة والدقيقة كعدد القوة العسكرية القعيطية، وغيرها من أرقام عدد سكان المناطق التي زارها الرحّالة (ميولين). ولكن من باب الإنصاف فلا ينبغي الاستخفاف بالنتائج العلمية والجغرافية والجيولوجية لكثير من مناطق حضرموت في تلك الزيارة،

كذلك التعرف على الأحوال الطبيعية والبشرية للمنطقة وكذلك النشاطات البشرية وتوزيع الحياة النباتية والحيوانية فيها. وكشفت رحلة (ميولين) عن كنز كبير من كنوز حضرموت، وهي الآثار، وكشفت عن مواقع كانت مجهولة للعديد من الغربيين مثل أنقاض قوم عاد، ومقابر الملوك وقبر نبي الله هود -عليه السلام- وبئر برهوت وغيرها.

يُذكر أن من أوائل من وطئت قدماه حضرموت من الرحّالة الأوربيين (أدولف فون فريدا) في صيف عام ١٨٤٣م وهو ألماني تعلم اللغة العربية وتسمّى باسم عربي (عبدالهود) – أي خادم النبي هود – وادّعى أنه من مصر لإخفاء هويته، وألّف كتابًا حول رحلته باسم (رحلة في حضرموت بلد بني عيسى وبلد حجْر)، ولكنه لم يتمكن من نشر كتابه في حينه وتوفي في إسطنبول في حال يرثى لها بعد أن تنكّر له أهل بلده ألمانيا واتهموه باختلاق تفاصيل الرحلة من مخيلته وافتروا عليه كذبًا ولم يجد من ينشرها أو يطبعها له. وبعد قرابة عشر سنوات من وفاته قام الرحّالة (البارون فون مالتزان) بجمع مخطوطات رحلة (فريدا) ونشرها وفاءً لما قام به بعد أن تحقق من تفاصيل الرحلة ومن الأماكن التي زارها في حضرموت وتأكد من صحتها.

يقول الباحث الهولندي (دانيال فاندر ميولين). وقد قام وحده أو مع آخرين مثل الألماني (فون فيسمان) بثلاث رحلات إلى حضرموت وكتب حول كل رحلة كتابًا. ففي كتابه الأول: (حضرموت إزاحة الستار عن بعض غموضها) قال: "نحن مدينون برحلتنا إلى المكلا للحكومة الهولندية التي أوكلت إلينا هذه المهمة". وقال في مقدمة كتابه الثاني (من عدن إلى حضرموت) **"كانت حضرموت هدفنا وكان يفد منها وما زالوا يفد رجال الأعمال من العرب الذين لهم مكانة متميزة جدًّا في مستعمرة هولندا في جزر الهند الشرقية، والذين يلعبون دورًا اقتصاديًّا هامًّا، فكان من المنطقي أن تكون للهولنديين رغبة لمعرفة بعض الشيء عنها".**

تاريخ حضرموت بين التوثيق والضياع:

يقول الكاتب (عبدالقادر الصبّان): **"إن ضياع المصادر التاريخية هي عامل قوي في إسدال الستار عن تلك العصور، وإن ضياع المصادر هي حجاب كثيف لا يستطيع الباحث أن يهتكه إلا استنتاجًا".** ويقول (علوي بن طاهر الحداد) في كتابه (عقود الماس) **"إن كارثة الزنجيلي، والغزو، وما تلا ذلك من هجوم القبائل جعل أهل الفضل يشتغلون بأنفسهم وهم الذين يحفظون التاريخ، وهرب أكثرهم إلى ظفار واليمن ومكة وغيرها. ومن تأمل ذلك علم أن تلك الكوارث بالنسبة لحضرموت كواقعة التتار بأقطار الإسلام وما تلا ذلك من أعمال تيمورلنك فلا عجب من اندراس الآثار وخفاء الأخبار".** ويقول أيضًا: "وقد كان لحملات الغزو والخوارج وقبائل السراة والسروين وحمير ومذحج أثر عظيم في انطماس الكتب والمؤلفات مع ما عُرف به أهل حضرموت من الإضاعة والإهمال لآثار من سبق". يؤكد ذلك أيضًا في كتبهم الشاطري وعبدالرحمن بن عبيد الله السقاف وغيرهم.

ولم يقتصر هذا الأمر في ضياع التراث الحضرمي والآثار على تلك الفترة وحسب، بل استمر حتى في فترة الوجود البريطاني في عدن، فيذكر المؤرخ (محمد عبدالقادر بافقيه): **"أن ميناء عدن، تحت الراية البريطانية، كان أحد المنافذ الرئيسة التي تسرّبت من خلالها آثار مهمة فقد بعضها، أو أغلبها أو الكثير منها، أهميته العلمية بعد أن حُرّك من موضعه ليوضع في دهاليز المتاحف الخاصة والعامة وليحتل في العرض زوايا متناثرة هنا وهناك".** ويضيف (بافقيه): **"أن تجارة الآثار في اليمن قد اتخذت عند التقاء القرنين التاسع عشر والعشرين أبعادًا خطيرة إذ كادت تشمل اليمن كله رغم وعورة الطرق وصعوبة التنقل من جراء اهتزاز الأمن المرافق لحالة التمزق التي أضعفت البلاد وقتها وخلقت فيها حالة القابلية للاستعمار".** ثم يردف في موضع آخر من كتابه: **"وكان القانون في عدن هو إرادة المستعمر، ولم تكن إرادته تتعارض مع تشجيع الاتجار في الآثار رغم علمه أنها مسروقة. بل كان الضباط البريطانيون أنفسهم من عسكريين وأشباه مدنيين لا يتورعون عن الاستحواذ على ما تصل إليه أيديهم من قطع أثرية، بعضها يتهافتون عليه لقيمته المادية، وبعضها يحتفظ به الأفراد منهم على سبيل التذكار، وبعض آخر يجد طريقه إلى متاحفهم والمتاحف الأوروبية الأخرى بيعًا وإهداء، ويحمل عند قيده في سجلاتها أسماء مورديها الأشاوس".** ولم يقتصر الأمر على سرقة الآثار التي تحكي كثيرًا من تاريخ حضرموت، ولكن الأمر وصل إلى استنساخ وسرقة الوثائق والمخطوطات والنصوص المستندية.

يقول (سعيد باوزير) في كتابه (معالم تاريخ الجزيرة العربية): **"وإذا كانت الفوضى والاضطراب ظاهرة ملموسة في كثير من فترات التاريخ الإسلامي لحضرموت، فإن الفترة الواقعة بين القرن السادس الهجري إلى أوائل القرن العاشر هي من أبرز عهود التاريخ اضطرابًا"**، ولا ننسى أثر الاختلاف العقائدي في اندثار كثير من كتب التاريخ والأدب والفقه وغيرها، حيث استمر الصراع بين المذهبين السني والإباضي فترة طويلة من الزمن، ثم ساد المذهب الشافعي السنّي وانعدم بتاتًا المذهب الإباضي بعد صراع فكري وعلمي ودموي مرير. وقام المذهب الجديد بإعدام كل ما له صلة بالعهد السابق، وينقل (الصبّان) عن العلامة المؤرخ علوي بن طاهر الحدّاد في كتاب (جني الشماريخ) قوله: **"إن سبب ذهاب تواريخ حضرموت القديمة وانطماسها أن الأخلاف رأوا في سيرة الأسلاف ما ينكرونه منهم اليوم فعمدوا إلى إخفائه".** وهذه العبارة لعمري تحتاج إلى تفسير وتوضيح حيث إنها تحمل أكثر من معنى.

يذكر المؤرخ الروسي (سرجيس فرانتسوزوف) **"إن المعروف من تاريخ حضرموت على امتداد عشرات السنين من بعد حرب الردة حتى الثورة الإباضية، ما هو إلا صور جزئية غير مكتملة في أحايين كثيرة. إذ لا نجد ولو قائمة كاملة بمن حكمها من الولاة".** وبحسب العلامة الشيخ (عبدالله الناخبي): **"إن حضرموت القاحلة المجدبة موطن عاد وحمير**

وكندة مرّت بعصور شاهدت بها أحداث وذهبت أجيال وأعقبتها أجيال، ولكل جيل معالمه وآثاره ولكل قبيل حضارته وتاريخه، وذهب معظم ذلك نتيجة للجهل والإهمال مع طبيعة البلاد القاسية التي تضافرت كلها على إسدال الستار وإهمال الكثير من تاريخ حضرموت".

إن ضياع التراث ليس خاصًا بالحضارم وتراث حضرموت فقط، بل هي مشكلة إنسانية... ويعزو الدارسون في حقل الدراسات الإسلامية أسباب فقدان أعمال التراث الإسلامي، إلى عدة عوامل بشرية منها: الحروب مثل اقتحام المغول لبغداد وإتلافهم الكثير من الكتب، وضياع ممالك الأندلس في محاكم التفتيش التي طالت أثمن ذخائر التراث الإسلامي بالحرق والإتلاف الإرهابي الكنسي... وقد نالت حضرموت القسط الأوفى من هذا الإرهاب الفكري. ومنها ما حدث في العهد الاشتراكي، حينما اعتبر الدين كهنوتية ورجعية وقامت عساكر الجبهة القومية بإحراق وإتلاف مئات الكتب والوثائق.

يذكر الدكتور (علي صالح الخلاقي) عن أسباب ضياع التراث والوثائق: "أن كثيرًا من وقائع تاريخنا المعاصر ما زالت مجهولة وغير واضحة؛ لانعدام المصادر والوثائق الأصلية التي تؤرخ لتلك الأحداث في حينها، فبسبب تعاقب الدول والتبدلات السياسية تضيع وثائق الدول المنتهية أو تتعرض للإهمال . هكذا كان حال الدولة القعيطية بعد الاستقلال؛ إذ فُقد الكثير من وثائقها، وتعرض أرشيفها للإهمال، وربما للطمس من قبل سلطة الجبهة القومية بعد الاستقلال الوطني ١٩٦٧م، مثلما طمست هي -أي الدولة القعيطية- كذلك وثائق الدولة الكسادية بعد أن قضت عليها، وكما تُدين تُدان".

ينقل (د. أحمد باحارثة) كيف تحسّر الكاتب والمؤرخ (صلاح عبدالقادر البكري) على ما آلت إليه الأمور نحو توثيق تاريخ حضرموت وذلك في الأربعينيات من القرن المنصرم عندما زار حضرموت قائلًا: "ليس للتاريخ القومي والجغرافيا المحلية عناية تذكر، وهذا يرجع إلى عدم وجود كتب في هاتين المادتين" ثم يقول (البكري) متوجسًا: **"منهج التعليم المعمول به في مدارس الدولة القعيطية هو منهج السودان، وهو في مجموعه لا يتماشى مع حاجات البيئة الحضرمية، وعلماء التربية في كل الدنيا، قالوا: إنه عند وضع أي منهج للتعليم يجب أن يراعى فيه الاحتفاظ بالطابع القومي، وأخطر شيء أن نكون مقلّدين، نأخذ منهج التعليم بدقة من غيرنا، ونطبقه على مدارسنا؛ فلكل أمة خصائصها".**

كذلك من أسباب ضياع التراث التسرّب أي سرقة المخطوطات ونقلها إلى خارج البلاد خاصة من قبل المستشرقين إلى جانب نقل بعضها إلى خارج البلاد من قبل المهاجرين إلى إندونيسيا والهند وغيرها، ومنها الكوارث الطبيعية كالأمطار والسيول والفيضانات والحرائق والحشرات ومنها حشرة الأرَضة والأحوال الجوية كالرطوبة وارتفاع درجة الحرارة وكذلك تحلّل الحبر بفعل الزمن وطول مدة تخزين تلك الكتب والمخطوطات، وهذه الأسباب

يشترك فيها الحضارم مع غيرهم إلا أن الحضارم يزيدون عن ذلك أسبابًا منها كثرة الفئران والبخل بالمكتبات، كما أن من الأسباب هو خوف الحضارمة من المعايرة بالنسب وتعمّدهم إخفاء وثائقهم وجهلهم بقيمتها الحضارية والعلمية والتاريخية.

من ذلك ما أصاب الفترة الإباضية من إهمال في تدوين تاريخهم كما أشار إلى ذلك (سعيد عوض باوزير) فلقد تعب الباحثون في تتبع أخبارهم، حيث يقول (باوزير): **"نحن لا نملك أن نصدق أن مئات السنين التي عاشها الإباضيون في حضرموت دون أن يتركوا أثرًا علميًّا أو أدبيًّا أو تاريخيًّا يعبّر عن عقيدتهم ومذهبهم، ويسجل عواطفهم وأحاسيسهم ويدوّن أخبار خلفائهم وأمرائهم وقوادهم وعلمائهم وأدبائهم، ويعطينا صورة واضحة المعالم عن حياتهم السياسية والثقافية والاجتماعية"**. أما العلامة (الشاطري) فيعزو ذلك إلى الجمود الإباضي وإلى الإهمال وعدم الاهتمام بتدوين التاريخ، وللفوضوية الضاربة أطنابها في البلاد وعدم الاحتفاظ بالذخائر العلمية. بل لقد دفع بعضهم إلى اعتبار سبب تلاشي الإباضية ونهايتها إلى الإهمال الكبير للعلم والفقه عند متأخري إباضية هذه البلاد واعتمادهم على فقهاء عُمان وفتاويهم.

ينقل (أحمد بن عمر الكاف) قول العلامة المؤرخ الشيخ (نور الدين عبد الله السالمي) المتوفى سنة ١٣٣٢هـ في مقدمة كتابه المهم (تحفة الأعيان) أحد أهم المصادر عن تاريخ عُمان وإباضيتها قوله: **"لم يكن التاريخ من شغل الأصحاب، بل كان اشتغالهم بإقامة دولة العدل، وتأثير العلوم الدينية، وبيان ما لابد منه للناس أخذًا بالأهم فالأهم، فلذلك لا تجد لهم سيرة مجتمعة، ولا تاريخًا شاملًا"**. يقول المؤرخ (علوي بن طاهر الحداد) في كتابه (الشامل) **"وإنما تُفقد المؤلّفات إذا استولى عليها أحد البخلاء بها، وهو غير متأهّل لحفظها، ولا نسخها، فإذا مات أهملها خلَفُه، وتركوها للأَرَضَة"**.

إن تاريخ حضرموت أكبر وأطول وأعمق من اختصاره في بضعة أسطر أو صفحات، ولقد سبقني للكتابة عنه مؤرخون أجلّاء ذكرت بعضهم وجهلت بعضًا آخر، ولمن يريد التعمّق في هذا الموضوع عليه أن يغوص في أعماق ما كتبه (الشاطري)، و(الحامد)، و(السقاف)، و(الحداد)، و(الناخبي)، و(باحنان)، و(بامطرف)، و(باوزير)، و(بامؤمن)، و(الصبّان)، و(باصرة)، و(بافقيه)، و(باذيب) وغيرهم ممن تجدون أو لا تجدون أسماءهم مسطّرة في قائمة مراجع هذا الكتاب.

خارطـــــــــــــــــــــــــــــــة مديريـــــــــــــــــــــــــــــة دوعـــــــــــــــــن

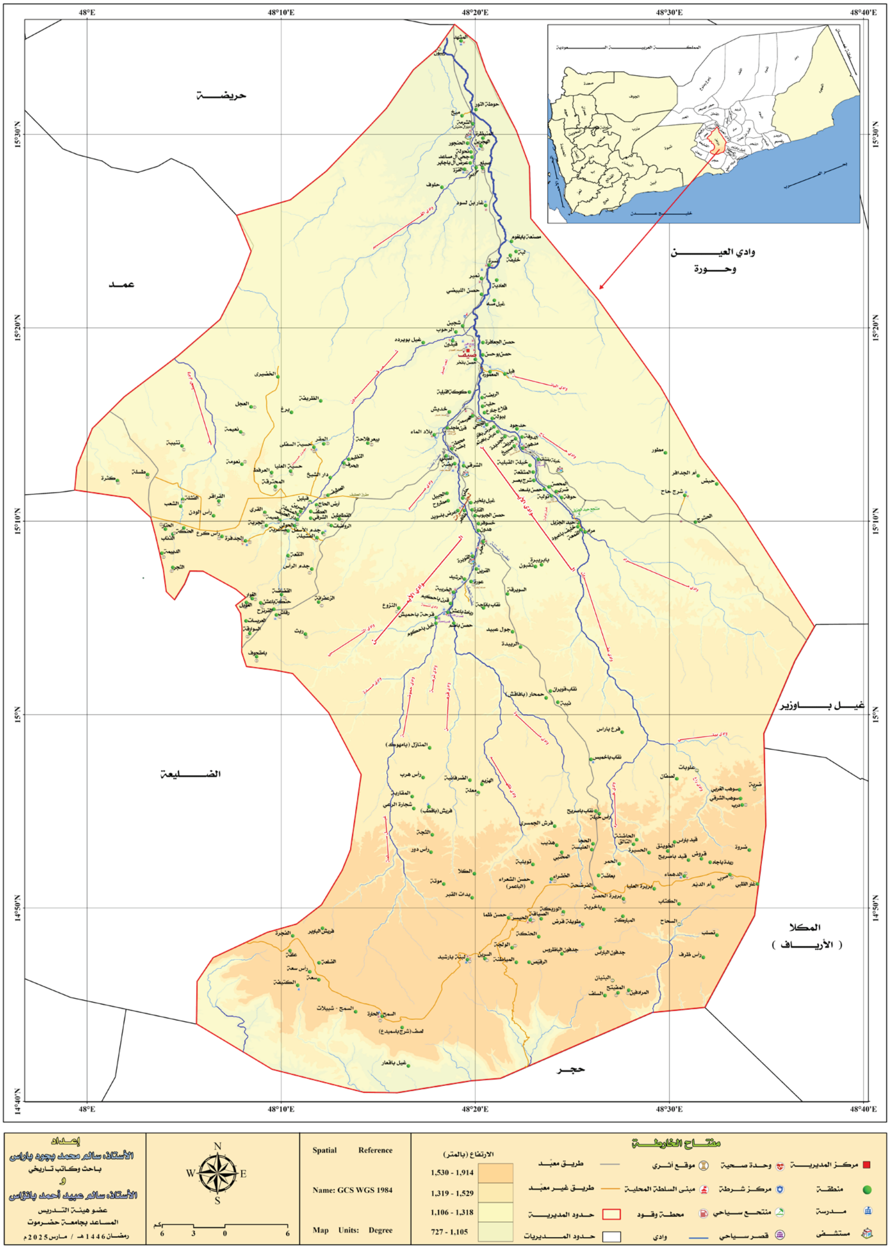

الباب الثاني

وادي دوعن

تمهيد

يقول الرحّالة الهولندي (دانيال فاندر ميولين) في كتابه (حضرموت – إزاحة النقاب عن بعض غموضها) وذلك عندما زار وادي دوعن في رحلته الشهيرة لحضرموت بصحبة زميل ورفيق رحلته الجغرافي الألماني (هيرمان فيسمان) عام ١٩٣١م، **"يقع وادي دوعن بين ضفتي صخوره العالية منغلقًا في أمان عن العالم، مثل قطعة غير حقيقية من جِنان منسيّة تنتظر يوم البعث. هذه هي جائزة المسافرين المرهقين من السفر في الصحراء. غمرتنا الفرحة ووقفنا على حافة أرضنا الموعودة يغمرنا الإعجاب. وما تجرأنا ولا كان باستطاعتنا أن نتخيلها بهذا الجمال. هذه ليست بعد حضرموت الداخل، وإن كانت في الحقيقة بوابتها الخارجية. وقفنا على شفا الهاوية وبدأنا ندير آلات التصوير في صمت. وبالرغم من الحرارة فلم نستطع أن ننتزع أنفسنا من السحر الذي خلبنا به هذا الوادي الزاخر بالخصوبة والجمال، وسط صحراء قاحلة لامتناهية من الصخر والحجارة".**

ذكر (ميولين) أيضًا أن وادي دوعن بفرعيه الأيمن والأيسر يتكون من (٥٠) قرية يبلغ سكانها في ذلك الوقت عام ١٩٣١م عشرون ألف نسمة، بحسب ما ذكره له حاكم الوادي حينها المقدّم (عمر باصرّه)، ويوجد في الوادي فقط مدرستان أسّسهما ويصرف عليهما من تريم السيد (أبوبكر بن شيخ الكاف)، إحداهما في (الخريبة) وهي العاصمة القديمة لحضرموت والأخرى في (قيدون)، ويوجد في وادي دوعن قرابة ٢٠٠ مسجد. وبها العديد من بساتين النخيل إلا أن إنتاجها بالكاد يكفي للاستهلاك المحلي ولاستعمال البدو المجاورين، وما عادت بساتين النخيل مصدر دخل لأصحابها في تلك المرحلة وتعتمد هذه البساتين على مياه السيول النادرة، في حين ترسل دوعن سنويًّا إلى الساحل ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ حمولة جمل من العسل الدوعني. ويوجد دائمًا بجانب منازل الأثرياء مسجد بمئذنة، مطلي باللون الأبيض الخلّاب.

أما الرحّالة وعالم الآثار (جيمس ثيودور بينت) فقد أُعجب كثيرًا بما رآه من آثار تدل على تاريخ تليد لوادي دوعن ووصف ذلك بقوله: "بالقرب من الهجرين لا تزال هناك عدد من آثار العصور القديمة عندما ازدهرت تجارة اللّبان، وعندما كانت مدينة دوعن والتي لا يزال اسمها محفوظًا في وادي دوعن، مركزًا تجاريًا كبيرًا لهذه التجارة. تمتد مساحات شاسعة من الأطلال على طول الوادي هنا تعود إلى القرون التي تسبق بداية عصرنا تطل رؤوس هذه الأطلال فوق الرمال، التي تغطيها وتغزو وتسحق المجد السابق لهذه المنطقة. تمتلئ الأرض بقطع النقوش الحميرية والفخّار المكسّرة والمتناثرة وغيرها من الدلائل على كنز وفير لعمال الحفريات".

سبب تسميته بوادي دوعن:

يعدّ وادي دوعن واحدًا من أكبر الأودية في محافظة حضرموت، وينقسم إلى قسمين: الأيسر والأيمن، واللذان يلتقيان ليصبّا في مجرى واحد يلتقي مع بقية الأودية كوادي عمد

ووادي العين ليشكل الجميع وادي حضرموت الرئيس. وتأتي كلمة (دوعن) من (دوع) وهو الوادي في اللغة الحميرية، ولأنهما واديان فقد قيل (دوعان) ولسهولة النطق سمي (دوعن). ويعتبر الوادي الأيمن هو الأكبر في مساحته وفي تعداد سكانه.

وهناك رواية أخرى تقول إن دوعن هي نسبة إلى (دوعان) وهذا اللفظ مركب من كلمتين (دُو) وتعني بالفارسية العدد اثنين، و(عان) تعني المرتفع من الأودية. ويقول العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف في كتابه (إدام القوت في ذكر بلدان حضرموت): "أما دوعن فإنه اسم أعجمي فارسي"، وقيل إنما سُمّي بذلك نسبة إلى ملك من ملوك حضرموت قديمًا. والله أعلم.

وفي كتاب (الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها) أن الاسم مختصر من لفظ (أيدعان)، وهو اسم جد قبيلة من الصدف. واسم جد قبيلة من حضرموت أيضًا. فسمّي الوادي باسمه، ولما تكرر على الألسنة تصرفوا فيه بالزيادة والحذف، والله أعلم.

ذكر الكاتب (سالم عبدالله بن سلمان) في كتابه الجميل (دوعن الوادي الجميل) تفصيلًا جيدًا يستحق ذكره عن أسباب التسمية حيث يذكر بأن الأبحاث الميدانية الأخيرة التي قامت بها البعثة السوفيتية للآثار والدراسات التاريخية من عام ١٩٨٤م إلى عام ١٩٨٨م أزاحت ذلك الغموض الذي ظل سنين طويلة؛ حيث أظهرت تلك الأبحاث بأن تسمية وادي دوعن تستند إلى الوادي نفسه، ويأتي في هذه الأبحاث قول الباحثين تسمّى الوادي بتسمية واحدة هي وادي دوعن كما أن التسمية الأصلية القديمة للوادي عند (بلين) تتصل بتسمية العشيرة (توعني). وتسمية الوادي في شكل (دون) تُذكر في نقوش الأضرحة في القرن الأول ق.م من الضريح الكهفي (الركبة) في أعلى الشاطئ الأيسر لمصب وادي (جبر) الذي يصب في وادي دوعن في الجهة المعاكسة للهجرين مما يعطي الدليل على صحة هذه التسمية. ثم يضيف (سالم بن سلمان) بأن دوعن قديمًا لم تكن هذه التي انتظمت حسب التسمية الجديدة. إذ كان يطلق هذا الاسم في بعض عهود التاريخ على مدينة (الخريبة) التي يقال إنها من أمّهات المدن التاريخية في هذه البلاد، ثم تعدّاها المدلول إلى الوادي الأيمن بأسره، ثم اتسع نفوذه مع مرور الزمن فأصبح يطلق على وادي الأيمن والأيسر، وبقي هذا حتى حدث التغيير الإداري الجديد الذي حدث في عهد السلطنة القعيطية فاتسعت الرقعة وتضخّم نفوذ الاسم فشمل عدة نقاط في البادية شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، كما انضمت عدة أجزاء أخرى دعتها التسمية الحديثة بالمقاطعات (مقاطعة ليمن وليسر، ومقاطعة الهجرين، ومقاطعة وادي العين، ومقاطعة حرضة ووادي عمد).

مديرية دوعن:

بحسب الباحث (سالم بن سلمان) فقد كانت تُضم هذه المقاطعات تحت اسم لواء دوعن واستمر هذا التقسيم إلى قيام الجمهورية عام ١٩٦٧م، ثم عُدّل هذا التقسيم بكل مقاطعاته السابقة من جديد بعد قيام الجمهورية تحت اسم المديرية الغربية من المحافظة الخامسة سابقًا، وكانت مدينة الخريبة هي العاصمة للمديرية ثم تم نقل عاصمة هذه المديرية من مدينة الخريبة عام ١٩٧٠م إلى بلدة حوره، ثم انتقلت من حوره مرة أخرى إلى صيف عام ١٩٧٢ م، ثم انتقلت من صيف إلى حريضه عام ١٩٧٤م وظلت حتى قيام الوحدة عام ١٩٩٠م، وحتى عام ١٩٩٨م حيث تم فصل مديرية دوعن إلى مديرية مستقلة عاصمتها بلدة صيف من جديد لتشمل فقط دوعن الأيمن والأيسر وبعض مناطق السيطان في البادية المحاذية لهذه البلدان في منطقة الأيمن والأيسر، ومنها لبنة والحيسر وسوط القثم والمعوس وغيرها.

نبذة تاريخية عن وادي دوعن:

المساحة:

بحسب الباحث (سالم بن سلمان) نقلًا عن صحيفة الأخبار تحت عنوان (معلومات لم تنشر): "تبدأ مساحة وادي دوعن حسب التقسيم الإداري الحديث، شرقًا من هضاب الشورة وما بين الجبال إلى مطارح الباتيس وما حاذاها غربًا، ومن ناحية الشمال يبدأ بالمشهد ووادي العين وما جاورهما منتهيًا بلبنه بارشيد جنوبًا، وهو باشتماله على هذه الرقعة من الأراضي والبلدان يكوّن جزءًا ضخمًا لا يُستهان به. ويقع الجزء الأساسي في القرى الكثيفة السكان في الجزء الأعلى من الوادي، حيث تقع أيضًا أهم المراكز مثل: قيدون، وصيف، وصبيخ، ورحاب، وبضه، والخريبه، ولجرات، والرباط، وحوفه، ويبلغ عدد سكان كل منها أكثر من ألف شخص وبعضها ألفان إلى ثلاثة آلاف شخص". ويبلغ طول الوادي تبعًا لمجرى السيل من غيل باحكوم إلى ما يقابل بلدة صيف من مجرى الوادي بنحو ثلاثين كيلو مترًا وأربعمائة مترًا، أي نحو ستة عشر ميلًا وثلث وزيادة نحو (٣٥٤) ذراعًا، ويبلغ عرض الوادي ما بين ٣٠٠ متر إلى ٥٠٠ متر.

ذكرنا سابقًا في المقدمة أن التاريخ قد أهمل سرد ما حصل في وادي دوعن في الفترة منذ دخول الإسلام للوادي وذلك عندما وفدت إلى الرسول -ﷺ- بالمدينة وفود حضرمية جماعية وفردية لإعلان الانضمام إلى واحة الإسلام وتقديم فروض الطاعة والولاء.

ومن تلك الوفود الجماعية وفد كندة التي استوطنت وادي دوعن، حيث ترأس هذا الوفد الأشعث بن قيس الكندي – أمير بني الحارث وسيد كندة - حيث قدموا إلى المدينة المنورة في السنة العاشرة للهجرة فقابلهم الرسول -ﷺ- أحسن مقابلة كما يقابل أمثالهم من وفود القبائل العربية، كما وفدت وفود أخرى من حضرموت للمدينة منها وفد (وائل بن حجر الحضرمي)، كذلك وفد قيس بن سلمه الجعفي، ووفد ربيعة بن مرحب الحضرمي.

يوجد بوادي دوعن مجموعة من المواقع الأثرية مثل مدينة (ريبون) أسفل وادي دوعن وتعدّ من أقدم المدن التاريخية في وادي حضرموت. وتشكل أطلالها وخرائبها عدة تلال أثرية وأعداد كثيرة من شبكات الري المتفرقة في أماكن عدة مما يدل على أنها كانت منطقة زراعية. يعود تاريخها إلى ما قبل القرن السابع قبل الميلاد. ويوجد بها مجموعة من المعابد القديمة مثل معبد (حميم) ومعبد (سين)، وهي أسماء لآلهة كانت تعبد قبل ظهور الإسلام. ويعتبر (سين) الإله الرئيس والرسمي لمملكة حضرموت القديمة كما يشير لذلك المؤرخ الروسي (فرانتسوزوف).

يلاحظ داخل المعابد التصاوير، فتماثيل الحيوانات الصغيرة تجسّد حيوانات التضحية، وكذلك العدد الكبير من التماثيل البشرية، وفضلًا عن المنحوتات. كان المعبد في (ريبون) مزخرفًا بالرسوم الجدارية، وكانت المذابح والأرض مغطاة بالنسيج وضفائر سعف النخيل المفتولة، وكانت الأسلحة معلقة على جدران قاعة الاحتفالات وقاعات الطعام كما أن المباخر وموائد القربان ومختلف ضروب المذابح تتوزع في الداخل.

جرت في خرائب هذه المدينة حفريات وأبحاث ودراسات أثرية من قبل البعثة الأثرية اليمنية السوفيتية في الفترة من (١٩٨٣-١٩٨٨م).

أطلال مدينة (ريبون) الأثرية

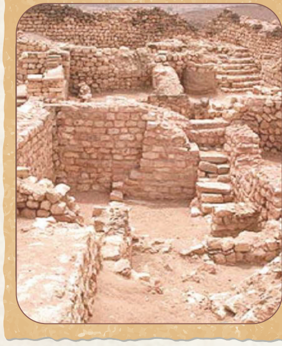

بقايا حياة اندثرت في ريبون

كما توجد قرية (القزة) والتي تقع في الجزء الأسفل من وادي الغبرة، أحد روافد وادي دوعن، إلى الجنوب الغربي من مدينة سيؤون، على بعد نحو (١٠٢ كيلو متر). تكاد أن تكون هذه القرية غير معروفة حتى عام (١٩٨٤م)، عندما وجدت البعثة الأثرية اليمنية السوفيتية، بالقرب منها، وبالقرب من نبع الماء المسمى بشرحبيل، على مغارة وجدت فيها آثار من العصر الحجري، وتعطينا هذه المغارة برهانًا ماديًّا على استيطان الإنسان لحضرموت في المرحلة المبكرة من العصر الحجري القديم. وقد احتفظت هذه المغارة بطبقاتها الحضارية المتعددة، والأدوات الحجرية بنفس الشكل والحالة ذاتها بمثل ما خلفها الإنسان الأول، وكذلك اكتشفت بقايا مواقده، وهذا يدل على أن المغارة استعملت لفترة زمنية طويلة كمسكن.

بالقرب من هذه المغارة تم اكتشاف طبقات مترسبة محتوية على بقايا نباتات قديمة وكذلك عظام مختلفة من بينها عظام حيوانات ضخمة، جميعها تظهر للعيان مطبوعة ومتحجرة على الصخور المترسبة، ودراسة هذه المغارة سوف تقدم لنا معلومات مهمة عن الحياة البيئية القديمة، واكتشاف هذه المغارة يعد بصورة خاصة اكتشافًا ثمينًا، فهي بحسب المعلومات المتوفرة تعتبر الأولى والوحيدة من المعالم الأثرية من نوعها في شبة الجزيرة العربية.

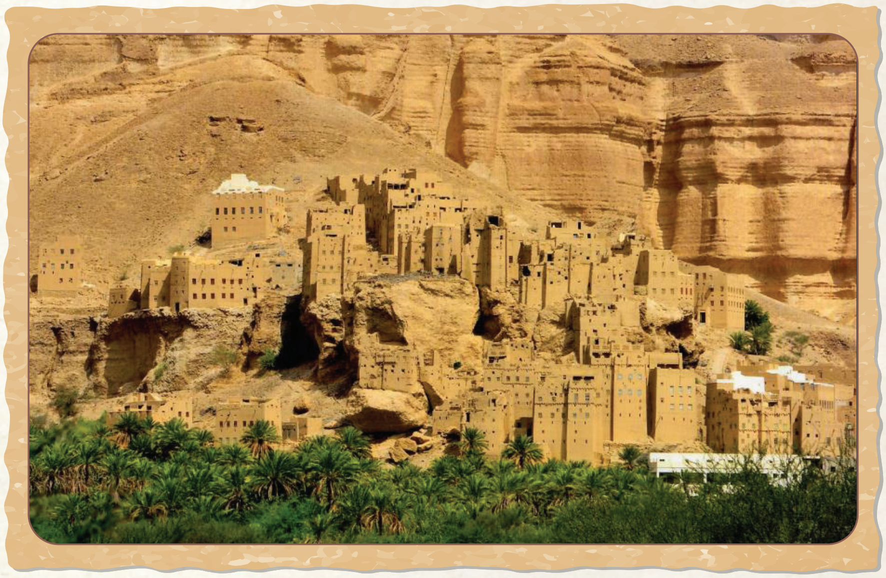

أطلال مدينة القزة التاريخية

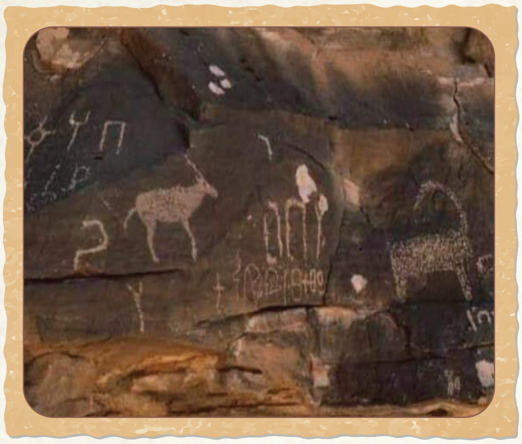

رسومات ونقوش تعود لقرون مضت - كهف القزة

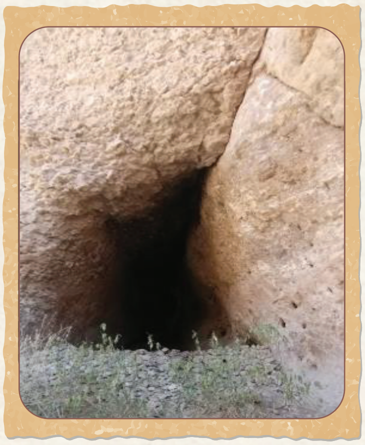

كهف القزة

الصراع للسيطرة على الوادي:

لقد كان وادي دوعن لميزاته الجغرافية ولثرواته الاقتصادية محل أنظار الطامعين، وغدا مسرحًا لصراع محتدم بين عدة قوى متنازعة كانت تسعى للسيطرة على الوادي، وضمّه إلى نفوذها، وقد ذاق الأهالي جرّاء هذه النزاعات صنوفًا من القهر، والأذى، والخوف، والقلق. فقد تداول على حكم الوادي العديد من الحكومات والسلطنات، كان من أبرزها إمارة آل العمودي التي أسسها عثمان بن سعيد العمودي في منتصف القرن العاشر الهجري، وجاء بعده الرجل الأقوى في الدولة الشيخ عثمان بن أحمد العمودي، الذي أرسى أركان الدولة واتخذ من قرية (بضة) مقرًا لحكمه، وكانت الحرب سجالًا بينه وبين السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري - بوطويرق. وكان الأخير يرغب في ضم وادي دوعن إلى سلطانه.

حيث وصل بوطويرق في التاسع من رمضان سنة ٩٤٨هـ إلى (قيدون) العاصمة الروحية للعموديين فخرّبها وفتك بأهلها وعزم على تهجير أهلها إلى صيف وهدَم كريف قيدون، ثم حاصر (بضه) وأخرب ساقيتها، ولكن العمودي تمكن مع حلفائه من القبائل من دحر بدر بوطويرق الكثيري عن وادي دوعن بشكل عام.

ولم يدم الاستقرار طويلًا، فقد بادر النقيب (صلاح بن محمد الكسادي اليافعي) -وكان له دولة عاصمتها المكلّا- بادر إلى الانقضاض على دوعن واستولى على الخريبة سنة ١٣٨٦هـ، ولكن سرعان ما جمع العمودي جنوده وأعاد وحلفاؤه مرة أخرى ترتيب صفوفهم، ودارت معركة بين العمودي والكسادي أفضت إلى اندحار الأخير عن وادي دوعن بعد أن خسر كثيرًا من رجاله وأخذ آل العمودي مدفعه وانحدروا به إلى بضة حيث يوجد بها إلى اليوم.

كان المثال الذي ضربه آل العمودي للناس ولأنفسهم في فائدة الوحدة والتكاتف في فترة معارضة الحكم الكسادي لدوعن مثالًا رائعًا وجنى الجميع ثماره سريعًا بالانتصار وطرد الكسادي، ولكن لم يلبثوا إلا قليلًا حتى عادوا إلى الخلاف والتفرق.

يذكر (البكري) **"أن السبب لغزو الكسادي لدوعن فهو كما قال الشيخ عمر بن سعيد الفقيه العمودي. اختلاف المشايخ فيما بينهم واشتداد النزاع بين زعمائهم على الرئاسة والسيطرة وحب الظهور، الأمر الذي دفع ببعضهم للاستعانة بالكسادي ضد بعضهم الآخر"**. وكما يقول الصحابي أبو مسعود - رضي الله عنه: "الخلاف شر". يقول الله جل وعلا: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ صدق الله العظيم.

بحسب ما ذكره (صلاح البكري) لم يكن الدوعنيون مجتمعًا واحدًا تشرف عليه حكومة واحدة فكل مدينة مستقلة في إدارة شؤونها تحكم نفسها بنفسها وتخضع لزعيمها خضوع العبد لسيده، فهم يشبهون إلى حد كبير الإقطاعيين في القرون الوسطى، وكان معظم تلك المدن بالغًا من الصغر حدًّا بعيدًا حتى لم يتجاوز عدد سكان بعضها عددًا ضئيلًا من الناس، ولقد أدّى تفرّق القوم في مدائن؛ وبعبارة أوضح في مقاطعات إلى تنافرهم وتناكرهم، فتولّد بينهم شعور المنافسة، وتمكّنت في نفوسهم العصبية للمقاطعة. وفي المناطق العليا تسكن قبائل بادية كالقثم والدين، وهم مشاغبون محبّون للحرب لم يخضعوا لحكومة إلا بعد معاناة الأمرين.

يذكر العلامة (محمد علي باحنّان) في (جواهر من تاريخ الأحقاف) عن وادي دوعن في العقد الثامن من القرن الرابع عشر: **"أنه قد آذن بتدهور نهائي من آثار تطاحن بداوة، وجفاء غباوة، مع ما فيه من قلّة مائه وقلّة علمائه، فإذا بكثير من مساجده مهجورة، ومدارسه غير معمورة، وكادت الأمة أن تعود إلى أميتها فيه، بينما هذا الوادي يُؤسف مرآه وتهدُّ قواه"**.

في مطلع القرن الرابع عشر الهجري قرّر السلطان غالب بن عوض القعيطي -المدعوم من الدولة البريطانية- ضمّ الوادي إلى سلطانه وإنهاء معاناة سكانه فبادر إلى جمع عساكره، وهاجم وادي دوعن الأيمن واستولى عليه، ثم أسند تصريف شؤونه إلى المقدم عمر بن أحمد باصرّة، والذي أسهم بدوره في تثبيت سلطان القعيطي، وضمّ الوادي الأيسر لاحقًا، وبذلك أصبح الوادي بفرعيه الأيمن والأيسر تحت حكم السلطنة القعيطية وأُطلق عليه (لواء دوعن).

تقول المؤرخة البريطانية (فريا ستارك) عن زيارتها لوادي دوعن في عام ١٩٣٤م: **"لقد أصبح الوادي هادئًا مؤخرًا، وتذكّر الكثير من الناس بلداته الصغيرة وهي تتقاتل مع الأخرى، ولكن السلام التّام يعمّها الآن؛ وفيما لو دوّت طلقة، فإن صداها يضرب على**

نحو متكرر من جدار إلى جدار من الوادي كما لو أن الصوت لا يستطيع أبدًا الهروب من ذاك السجن"، وهي تصف الحالة التي أصبح عليها الوادي من الاستقرار والأمن والهدوء بعد قرون من الاقتتال، والصراع، والنهب، والسلب.

(هذه النبذة التاريخية المختصرة جدًّا وردت في أكثر من كتاب عن الصراعات والنزاعات والحروب والمعارك للسيطرة على وادي دوعن).

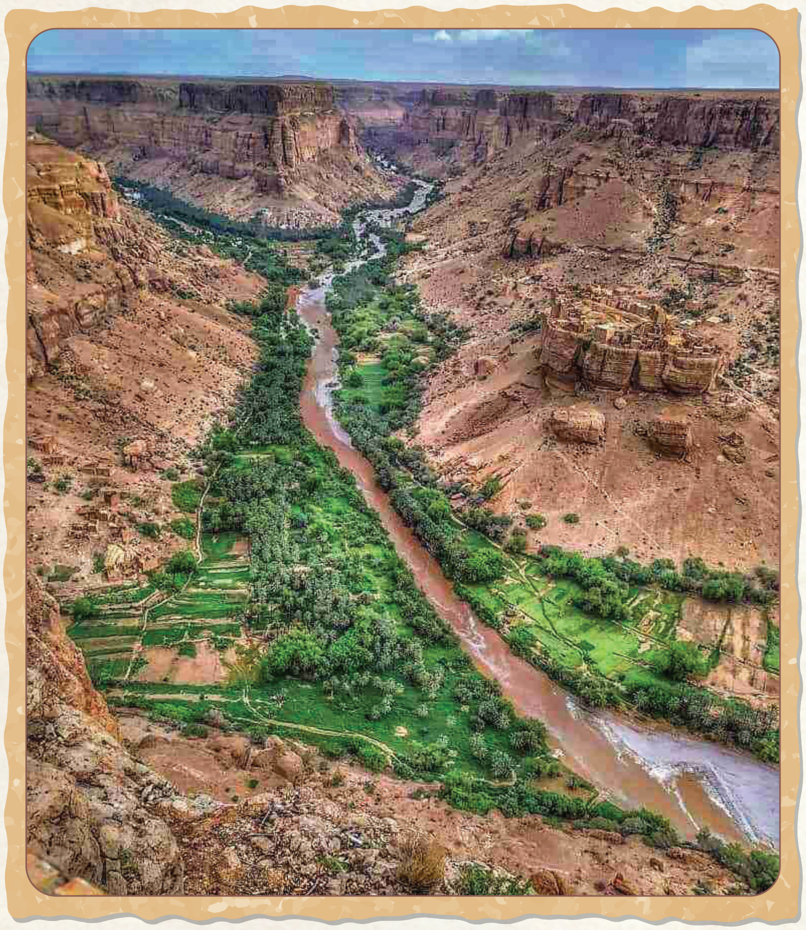

جانب من وادي دوعن الأيسر (ليسر) حيث يظهر فرعا الوادي الأيسر. في أعلاه وادي (عقرون) يمينًا ووادي (مراه) يسارًا، وتظهر قرية (حيد الجزيل) يمينًا حيث تتربع فوق تل تطل منه على مجرى الوادي الذي تجري فيه السيول القادمة من أحد الفرعين أو كليهما معا، وتنتشر الخضرة على جانبي بطن الوادي خلال موسم الأمطار.

الموقع الجغرافي:

يقع وادي (دوعن) في الجزء الجنوبي الغربي من محافظة حضرموت، ويحدّه من الشمال مديرية (حريضة)، ووادي العين وجزء من مديرية (عَمْد)، ومن الجنوب مديرية (حجر)، ومن الشرق وادي العين وجزء من مديرية (غيل باوزير)، ومن الغرب مديرية (الضليعة) وجزء من وادي عمد. تقدّر مساحة مديرية دوعن بحوالي (٣,٥٤٦) كلم مربع. وعدد السكان نحو (٤٣,٣٠٦) نسمة (بحسب إحصائية عام ٢٠٠٤م).

بحسب البعثة السوفيتية لعام ١٩٨٨م يدخل وادي دوعن ضمن نظام الروافد الجنوبية الأساسية لوادي حضرموت، حيث يضم حوض الوادي أكثر من ثلاثين رافدًا (مصبًّا) مختلفا وكمية كبيرة من المسائل (مصارف المياه) الثابتة للينابيع الموسمية في أثناء الأمطار. ولقد شكّل وادي دوعن في مجرى التاريخ الطويل له منطقة تاريخية ثقافية قائمة بذاتها في غرب حضرموت. كما تشير نصوص البعثة السوفيتية إلى خاصيته وأهميته، وقد كان الوادي الوحيد المعروف للكتاب القدماء من بين روافد وادي حضرموت، وإن آثار سكان الوادي تُستكشف على طول امتداده حتى أعالي الوادي. وقد توصلت البعثة إلى أنه قد كان يمر حول وادي دوعن طريق تجاري قبل بداية العصر الميلادي يوصل حضرموت بالطرق التجارية الرئيسية من الساحل إلى (شبوه - تمنع).

ينقل الباحث (سالم بن سلمان) عن الكاتب (محمدعوض محروس) ما ذكره في بحثه حول تاريخ حضرموت في صحيفة شبام بأن هناك كثير من الدلائل والأبحاث الميدانية تشير إلى أن وادي دوعن موغل في القدم، حيث تمكنت البعثة اليمنية السوفيتية في الأعوام (١٩٨٣ -١٩٨٩م) من التعرّف على موقع وجود الإنسان الأول في العصور الحجرية في أسفل وادي دوعن، وتم اكتشاف ثلاث مغارات قديمة بمثابة سكن دائم للإنسان في العصور الحجرية في هذه المنطقة.

التضاريس والمناخ:

يتكون سطح الوادي من سهول وأودية، وهضبة واسعة جافّة غالبًا، وتتركّز معظم التجمعات السكانية على جانبي الوادي وتفرّعاته الأيمن والأيسر، ويمرّ بوسط الوادي خط الأسفلت الرئيس الذي يربط المناطق بعضها ببعض، ويربط المديرية بالمديريات الأخرى في المحافظة. ويبلغ طوله من أعلى الوادي إلى أسفله نحو (٤٠) كيلو متر.

أما مناخ وادي (دوعن) فيتدرج من المناخ المداري الحار الرطب نوعًا ما، إلى المناخ المعتدل البارد، ويزداد البرد خلال فصلي الشتاء والربيع، وتعتبر الأمطار موسمية حيث تزداد في فصل الخريف والصيف، وتقل في الشتاء والربيع.

بلدة رحاب - يظهر خط الأسفلت الذي يربط بلدات وقرى الوادي ببعضها

الحالة الاقتصادية:

يعمل معظم سكان الوادي في زراعة أشجار النخيل والحبوب، يقول (روديونوف): "النخلة لا تعطي فقط الغذاء ومواد البناء وخامات اللوازم المنزلية والمصنوعات، ولكنها أيضًا توفر الظلّ لمزروعات الحبوب، وزراعة البطيخ والزراعة البستانية والمحاصيل الصناعية الأخرى التي تزرع تحت النخيل"، وللنخيل قابلية لأن تثمر مرة إلى مرتين في العام دون الارتواء من السيول ولذلك فإنها تتعلق بطوارئ البيئة بدرجة أقل من مزروعات الحبوب. وبالنسبة للحضارمة فإن امتلاك النخيل - هو أحد الشروط الثلاثة للحياة السعيدة، إلى جانب المنزل الخاص والزوجة الجيدة.

تنتج أشجار النخيل أصنافًا عديدة من التمور مثل الزجاج والصفري. ويرتبط محصول النخلة بطريقة الري: فعند السقي من الآبار - يمكن الجني من النخلة أكثر من ١٠٠ رطل (أي أكثر من ٤٥ كجم) من التمور، وعند السقي بمياه السيول في أواسط العام - تعطي أقل من ٣٣ رطلًا (أي أقل من ١٥ كجم). وفي وادي دوعن تعطي النخلة، حسب كلام محدثينا، حوالي ٢٢ رطلًا (٩,٩ كجم). بحسب (روديونوف).

أما زراعة الحبوب فمن أهمها الذرة ثم البر، والدخن، والدجر، والسمسم. كما تزرع الخضروات الأخرى كالبصل، السلط، الثوم، الفجل، الباذنجان، الخيار، الطماطم،

البامية، اللوبيا، النعناع والكراوية السوداء وغيرها. والمزروعات البستانية الليمون الحامض (الليم)، الرمان الموز البطيخ (الحبحب)، القرعيات بمختلف أنواعها.

كما يعمل بعض السكان في تربية ورعي الأغنام والجمال والبقر، وتربية النّحل (النُّوب) لاستخراج العسل الدوعني المعروف بجودته، ولكن انخفضت أعداد الجمال والأبقار في السنوات الأخيرة مع توفر آلات حديثة للحراثة والنقل، وعدم اعتماد الأهالي على منتوج تلك الثروة الحيوانية من الأبقار والجمال، وإن كان الاهتمام ما زال بتربية الماعز والضان (الجدي) لحاجتهم لها للأكل منها في الأعياد والمناسبات والاحتفالات وللضيوف، وللاستفادة من لبنها وجلودها.

كما يعمل بعض الأهالي بالتجارة، وصناعة الحرف اليدوية، وحاليًّا يرتبط كثير من أبناء الوادي بالوظائف الحكومية. ويسهم كثير من المغتربين والمهاجرين من أبناء الوادي في بناء المدارس والمساجد وبرادات المياه والمستشفيات، وفي سائر أعمال الخير في وادي (دوعن) وقديمًا قالوا: "لولا الهجرة لهلكت حضرموت".

المؤلف

وادي دوعن مركز علمي عريق، أنجب كبار العلماء، وانتشرت فيه الأربطة والزوايا والمدارس، وأسهمت المساجد والتعليم القرآني، في صناعة نهضة علمية واسعة، أثّرت في ترسيخ مكانة حضرموت العلمية داخلها وخارجها.

الحياة العلمـية
في وادي دوعـن

بحسب ما ورد في مقال للدكتور عبدالله قنيوي عن الحياة العلمية في الوادي الذي تم نشره بمجلة حضرموت الثقافية، فإن دوعن وادٍ ينبض بالتاريخ والعلم والعلماء وقديمًا كان يقال عنه (وادي الفقهاء)، فقد أنجبت أرض هذا الوادي المباركة جهابذة من العلماء الأجلاء بلغت شهرتهم الآفاق، فقد ذكر (محمد بن أبي بكر الشِّلِّي باعلوي) في كتابه (المشرع الروي) أنه وُجِد بهذا الوادي من العلماء العارفين ما يعجز عنهم وصف الواصفين وكانت (الهجرين) عامرة بالفقهاء حتى قيل إنه اجتمع فيها في ليلة واحدة ستون مفتيًا. وقد تركز نشاط أغلب هؤلاء الفقهاء الذين ذاع صيتهم في حواضر الوادي، التي كانت تشعّ بنور العلم.

منهم على سبيل الذكر وليس الحصر:

في رباط باعشن: الإمام العارف أحمد بن عبد القادر باعشن، والفقيه سعيد بن عبد الله باعشن، أما أجلّهم وأكثرهم نبوغًا فهو الشيخ العلامة الفهّامة سعيد بن محمد باعشن، صاحب كتاب (بشرى الكريم بشرح مسائل التعليم) فقيه دوعن وعالمها، وله التصانيف النافعة التي انتشرت في الآفاق، وبعضها يدرس في الجامعات العربية. ويعتبر رباط باعشن من أشهر الأربطة العلمية في وادي دوعن منذ القرن السابع الهجري، وكانت مقصد لطلاب العلم. وارتبط اسمها باسم أسرة آل باعشن كونهم هم أوائل من سكنوا القرية وجعلوها رباط علمي.

وفي (الخريبة): عالم الخريبة وقاضيها سليمان باحويرث وابنه محمد وكان فقيهًا جليلًا، والقاضي عمر بن أبي بكر باحويرث، ومن أفذاذها الشيخ عبد الله بن أحمد باسودان. كان من أهل العلم والتعليم والدعوة وكان مقصد طلاب العلم من جميع الأنحاء، وجعل الخريبة في عهده مستقرًّا للعلم وكعبة للمستفيدين، ومن بعده ابنه محمد بن عبد الله باسودان. وكانت (الخريبة) محط رجال العلم من قديم الزمان.

وفي الهجرين: الفقيه عبد الله بن أحمد بامخرمة، وهو الإمام الجليل والحبر العظيم، كان مشهودًا له بالتقدم في الفقه، ومنهم القاضي العلّامة: محمد بن عمر با قضام بامخرمة، ومنهم عبد الله بن عمر بامخرمة الملقب بالشافعي الصغير، ولد بالهجرين وكان فريد عصره في الفقه وسائر العلوم، ولي قضاء الشّحر، ثم أقام بعدن. وكان فصيحًا وبليغًا في الأدب. ومنهم الفقيه النحوي الأريب عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عفيف، والفقيه محمد بن أحمد باعلي بن عفيف.

وفي قيدون: الشيخ العلامة عثمان بن محمد العمودي، وابن أخيه الشيخ عمر بن أحمد العمودي، الذي سافر لطلب العلم، وتلقى عن جهابذة العلماء، ثم اشتغل بنشر العلم في دوعن، وتصدر للتدريس والفتوى في قيدون، وارتحل إليه جماعة من الطلاب وانتفع بعلمه خلق كثير. ومن المتأخرين العلامة الفقيه علوي بن طاهر الحداد.

وُصف بأنه: الخطيب المصقع والفقيه المحقق والمحدّث النقّاد، وقد أسس برفقة أخيه عبد الله (رباط قيدون). وكانت (قيدون) منارة علمية، ومركز إشعاع فكري، وكان فيها عدد ليس بالقليل ممن يحفظ كتاب الله عن ظهر قلب. ومن أعلام النساء في (قيدون) قديمًا الشيخة العالمة الفقيهة خديجة بنت العلامة الفقيه عمر بن أحمد بن محمد بن عثمان العمودي، عاشت في قيدون في القرن العاشر الهجري تحت رعاية أبيها العلامة الشهير.

وفي صبيخ: الأستاذ عثمان أبو بكر باعمر العمودي، مؤسس مدرسة صبيخ الابتدائية، ورائد التعليم الحديث في وادي دوعن. جمع بين العلم والعمل، وكان حازمًا وصارمًا، وكان خطيبًا لجامع صبيخ ويلقي الدروس فيه. يسمونه مصباح صبيخ السحري.

وكان في غير هذه البلدان من وادي دوعن من الفقهاء والصالحين من أشار إليه بنان الدهر بالفضل وسعة العلم. فلمع في (القرين) نجم آل البار، ومن أشهر علمائهم: الإمام أحمد بن عبد الله البار الذي أخذ عن علماء مصر والشام والحجاز، وكان يعد مسند دوعن في زمانه وكانت له مجالس علمية في مساجدها. وكان في (قرحة باحميش) فقيه دوعن وعالمها الإمام علي بن أحمد باصبرين وكان جبلًا من جبال العلم. نشر العلم في دوعن وأقبل عليه أفواج الطلاب من كل صوب، وله مصنفات جليلة تربو على ثلاثة وثلاثين كتابًا، وأنجبت (القويرة) الإمام أحمد بن محمد المحضار الذي كان آية في العبادة وتلاوة القرآن، وصيته بعيد، وفضله شهير. وفي (الرشيد) الفقيه سالم بن محمد الحبشي وكان إمامًا فاضلًا وعالمًا عاملًا، ناسكًا نبيهًا.

وكان من علماء وادي دوعن الأيسر: من (العرسمة) الفقيه أحمد بن محمد باشميل، وهو من أفضل قضاة العدل، ومن (الجحي) الإمام عبد الله بن سعيد باجنيد، ومن (الدوفة) الشيخ عبد الله بن عثمان بن أبي بكر العمودي، وفي (ضري) الشيخ الفقيه المعمر، أبوبكر بن أحمد باحميد، ومن فقهاء (تولبة) الفقيه علي بن علي بايزيد الدوعني، الولي الصالح، تلقّى الفقه من علماء دوعن، ثم تولى التدريس في المدرسة البدرية في الشِّحر وله مصنفات جليلة وانتفع بعلمه خلق كثير. وفي قرية (حوفة) كان العلامة الشيخ حسن بايماني العمودي، الذي أتقن علم الأصول والفقه واللغة العربية، وبلغ مرتبة كبيرة من العلم.

لقد كان لوجود هذا العدد الكبير من العلماء، عظيم الأثر في إثراء الحركة العلمية في الوادي، فانتشرت الأربطة وزوايا العلم في العديد من القرى وقصدها الطلاب من داخل الوادي ومن خارجه، وكان يعقد بها العلماء حلقات علمية فيلقون الدروس ويمنحون الإجازات ويستفتون في المسائل. ونشطت خلال القرنين الهجريين الفائتين في الوادي حركة علمية واسعة بينما كانت جهات أخرى من حضرموت يكتنفها سياج الجهل والتخلف.

دور الأربطة في نشر العلم:

كان لانتشار الأربطة في وادي دوعن دور كبير في نشر العلم وتدريسه وكان من أشهرها: (رباط باعشن) الذي أسسه الشيخ محمد بن أبي بكر باعشن في القرن العاشر الهجري، و(رباط الخريبة) الذي أسسه العلامة عبد الله بن أحمد باسودان، و(رباط قرحة باحميش) الذي أسسه الإمام علي بن أحمد باصبرين، و(رباط القويرة) الذي أسسه السيد أحمد بن محمد المحضار، و(رباط قيدون) الذي أسسه العالمان علوي وعبد الله آل الحداد.

كما أُنشئت الزوايا العلمية (هي الغرف الملاصقة للمسجد)، والتي تعد غالبًا للعبادة وإيواء طلبة العلم والمحتاجين وإطعامهم وتزويدهم بما يلزمهم وما يحتاجونه، وفيها تلقى الدروس، ويوقف عليها الأهالي من أموالهم، ومن أشهرها: (زاوية أبي الأوعار) في الهجرين أسسها الشيخ أحمد بن سعيد بن عفيف أبو الأوعار، وزاوية الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، التي أنشأها بنفسه في مسجده بقيدون وأوقف عليها مالًا، وأشرف عليها ذريته من بعده، وأيضًا زاوية الشيخ يوسف بن أحمد باناجة في الرشيد، وزاوية (الغزالي) في العرسمة وقد عمرها الشيخ علي أحمد باجخيف.

كما أُنشئت كذلك في منتصف القرن الهجري الماضي العديد من المدارس الأهلية التي كان لها بصمات واضحة في مسيرة التعليم وتطوره، ومن أشهر تلك المدارس: مدرسة البار بالخريبة ١٣٤٦هـ، والمدرسة الإرشادية بقيدون ١٣٥٣هـ، ومدرسة الرباط ١٣٥٩هـ، ومدرسة اليمن والسعادة بالخريبة ١٣٦٠هـ، والمدرسة الأهلية بنسرة ١٣٦٠هـ، ومدرسة الفلاح بصيف ١٣٦٣هـ، ومدرسة عورة الأهلية ١٣٧١ هـ، ومدرسة النصر بالهجرين ١٣٧٨هـ، ومدرسة المحضار بالقويرة ١٣٨١ هـ، والمدرسة الأهلية بلجرات، ومدرسة حوفة ١٣٨٢هـ، ومدرسة صبيخ ١٣٨٢هـ، والمدرسة الأهلية ببضة ١٣٨٣هـ.

تخريج دفعة من الحافظات
بدار الهدى - رباط باعشن

تخريج دفعة من حفظة كتاب الله
من قرية فيل بوادي دوعن

كما كان لمدارس تحفيظ القرآن حظ واسع من الانتشار في جميع بلدات وقرى وادي دوعن، ولم تكن قاصرة على البنين فقط وإنما شملت الفتيات والنساء. وقد أظهر كل منهما تفوقًا في حفظ كتاب الله، كما أنه تقام المسابقات القرآنية بشكل دوري لتخريج دفعات من حفظة كتاب الله يحضرها نخبة من العلماء وأولياء الأمور وطلبة العلم.

خطبة الجمعة بجامع صِيف

مكتبة جامع صِيف (مكتبة الشيخ عمر بادحدح)

لقد كان لبيوت الله دور ريادي كبير في النهضة العلمية والثقافية بوادي دوعن، فلم يقتصر دورها على إقامة الصلوات وتحفيظ القرآن، وإنما تعدّى ذلك لتكون منبرًا يصدح بتوعية الناس إيمانيًا وأخلاقيًا واجتماعيًا، وبث روح المحبة والألفة، وجمع الكلمة، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ففيها تقام الدروس العلمية والشرعية، ويتم فيها عقد مراسم القران، وفي شهر رمضان يتم تفطير الصائمين وفي الأعياد يجتمع الأهالي في المساجد الكبيرة للمعايدة.

وادي دوعن يتميّز بحرفٍ متوارثة، من الرعي والزراعة وتربية النحل وإنتاج العسل، إلى جانب صناعات الفخار والخوص والنجارة وصياغة الفضة والحدادة، وهو ما شكّل وعكس تلاحم الاقتصاد المحلي مع البيئة والتراث.

الحرف والمهن بوادي دوعن

الرعي:

يمثّل الرعي وتربية الثروة الحيوانية نشاطًا رئيسًا لمحافظة حضرموت ولأهالي (دوعن) كذلك، وتأتي تربية الماعز في المرتبة الأولى من حيث الكثافة الحيوانية، تليها الضأن والإبل والأبقار. وتستخدم الأبقار والجمال في الحرث أحيانًا، ويستفيد أهالي الوادي من تربية الأنعام سواء ببيعها كمصدر للدخل، أو من لحومها ولبنها كمصدر للغذاء ومن جلودها وصوفها، لصناعة المنتجات الجلدية.

غالبًا ما تسند مهمة الرعي للنساء

بعض منتجات جلود الأنعام الطبول (الهاجر والمرواس)

الزراعة:

يعدّ وادي (دوعن) من أودية حضرموت المهمة التي تحتوي على أراضي صالحة للزراعة. وأهم المزروعات: شجرة النخيل، وشجرة السدر، وشجرة الصَبّار والسمر، واللُّبان، وتزرع في (دوعن) حبوب الذرة والقمح وغيرها. ويعتمد الأهالي على الأدوات التقليدية مثل القدوم والسبرة والمربشة، وكذلك على الأيدي العاملة في الحراثة وجني المحاصيل.

حراثة الأرض بالوسائل التقليدية

أشجار النخيل بطول الوادي وعرضه

تربية النحل وإنتاج العسل:

يشتهر الوادي بإنتاج العسل الدوعني المستخلص من أشجار السدر والشوكيات والذي لم يتعرض لأي معالجات حرارية، وبهذا حافظت على خواصها الطبيعية. وبحسب المصادر التاريخية التي أشارت إلى أن العسل الدوعني كان يحتل المرتبة الرابعة في تجارة مملكة حضرموت القديمة منذ القرن العاشر قبل الميلاد. وقد تغنى أبوبكر سالم قديمًا بالعسل الدوعني في أغنيته المشهورة: "مِنّك ياعسل دوعن قوت العاشقين".

العسل الحضرمي الدوعني

استخراج العسل الدوعني من الجبوح

مما يجدر ذكره أن العسل اليمني حصد أربع جوائز مرموقة في مسابقة باريس الدولية لجودة العسل لعام ٢٠٢٥م، والتي أقيمت لأول مرة في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، استجابةً لرغبة المنتجين العرب، بعد أن كانت تُنظَّم كل عام خارج المنطقة العربية. وقد توزعت الجوائز بين ميداليتين بلاتينيتين حصدهما كلتيهما من عسل السدر الحضرمي وعسل السدر الصعدي، وميداليتين ذهبيتين من نصيب عسل السدر العصيمي وعسل السدر الجرداني، في إنجاز يُجسّد الجودة العالية والتميّز الفريد للعسل اليمني في الأسواق العالمية.

تقام هذه المسابقة سنويًّا لاختيار أفضل أنواع العسل في العالم، حيث سبق أن حصدت اليمن ثلاث جوائز خلال دورة ٢٠٢٤م، وشاركت هذا العام ضمن ٢٢ دولة، وقدّمت ٢٨٥ عينة من مختلف أنواع العسل للمنافسة، كان للعسل اليمني فيها حضور لافت.

وقد خضعت جميع العينات لتحاليل مخبرية دقيقة في العاصمة الفرنسية باريس، أثبتت جودتها العالية وخلوها من الملوثات، حيث قامت لجنة تحكيم دولية تضم (١٢) خبيرًا من (٨) دول أوروبية بتقويم العيّنات وفق معايير صارمة شملت: اللّون، النقاء، الرائحة، الملمس، النكهة، والطعم.

بحسب (روديونوف) فإن بدائية أساليب تربية النحل في حضرموت الغربية (حضرموت الداخل) تتجلّى في الغياب الكامل للأدوات المتخصصة، وهي تتألف هنا من سكينة عادية، وقطعة من قماش قطني يتم إحراقها لإرغام النحل على الخروج، وقطعة بسيطة للوقاية على الوجه ومصفاة للعسل، وكذلك نقالة خشبية للنحل وقفص للملكة، ويعالج النحالون في حضرموت مشاكلهم بدراية صحيحة دون الحصول على مساعدة المتخصصين، ويعتقد الحضارمة أن النحل يستطيع أن يقطع مسافة كبيرة إلى حد ما، أثناء جمع رحيق الأزهار، وإنه يبقى في الطيران حوالي ست ساعات في اليوم. كما أن هذا العمل من اختصاص الرجال، وتنتقل ملكية النحل والخلايا بالوراثة، ويحدث أيضًا أن يمتلك عدد من الأخوة الأشقاء منحلًا واحدًا، ويوجد في حضرموت محكمو النحل المتخصصين، الذين يقومون بحل النزاعات بين النحالين. ويحظى بشهرة كبيرة في أسفل وادي دوعن مبارك بن شملان. كما أن معظم المشادات المتعلقة بتقسيم الخلية؛ تحلّ غالبًا وفقًا للعادات والتقاليد.

تُنصب الجبوح بجوار أشجار السدر وأشجار السمر في أطراف الوادي

يمتاز العسل الدوعني برائحة مميزة لا تجدها في غيره من أنواع العسل، وهو أنواع من أشهرها: (عسل السدر) وهو أجودها وقوامه ثقيل ونكهته مميزة ولونه ذهبي، وهو الذي توضع فيه بيوت النحل بجوار أشجار السدر لتمتص من رحيق أزهارها، ونوع آخر هو (عسل السُّمر) ويسمى مريه أو صيفي ولونه أحمر غامق (داكن) يحتوي على مجموعة كبيرة من المعادن والفيتامينات والعناصر الغذائية المهمة لصحة الجسم؛ ولذا يساعد في بعض الأحيان في علاج العديد من الأمراض خاصة الباطنية. وفي الأعوام الممطرة يكون هناك موسم ثالث لجمع الشهد من الأعشاب يطلق عليه (مربعي).

الحرف اليدوية:

يشتهر وادي دوعن ببعض الصناعات الحرفية اليدوية منها:

صناعة الفخّار (الخزف): التي تعتمد على تربة الجير الطيني الموجود في الوادي الذي يتم تشكيله لصناعة الأواني المختلفة مثل: الخَزَب، والكوز، والزير، وبيوت النحل (الجبوح)، وفناجين القهوة، والتنّور، والمباخر، والجرار. ومن أشهر الأسر التي تتقن هذه الحرفة (آل بخضر، وآل بابريجة). إلا أن هذه الحرفة في طور الانقراض؛ لقلّة الطلب على منتجاتها وهجرة كثير ممن يتقنونها أو وفاتهم.

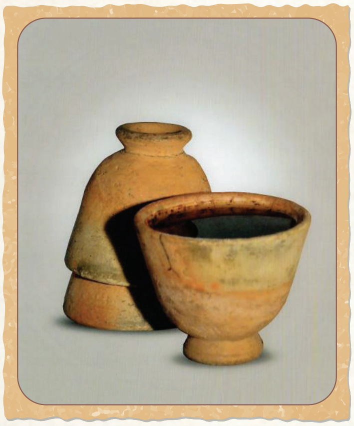

فناجين القهوة

مبخرة

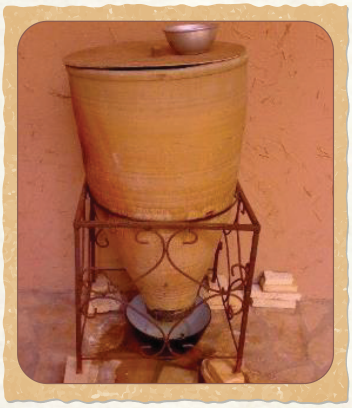

زير لحفظ الماء وتبريده

قُلّة أو جرّة

صناعة الخُوص:

تعتمد هذه الحرفة على سعف شجر النخيل الذي يصنع منه: الحصير (السّلْقَة: تستخدم كفرش لأرضيات المجالس أو تجفيف التمور)، والتّفال (يستخدم كسفرة لتقديم الطعام)، والفتور (يستخدم لتقديم الخبز)، والمرشحة (المراوح اليدوية)، والمعيار، والخبرة، والمكانس، وستائر النوافذ، وغيرها. ويعمل بهذه الحرفة (آل باسعد وآل دومان وآل بارمضان).

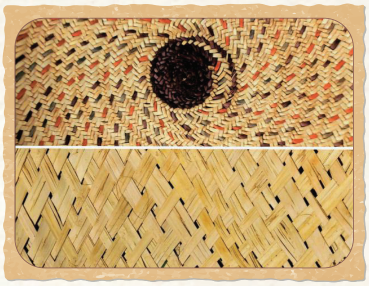

التِّفال (سفرة تقديم الطعام)

المرشحة (مروحة يدوية)

زنبيل لحمل التمر وغيره

سلّة من الخوص لحفظ الخبز والخمير

الحِدادة والنّجارة:

حيث يتفنّن المعلّمون المهرة (أمثال: آل باطرفي، وآل فقيهان، وآل باحكوم) في صناعة الأبواب والنوافذ وزخرفتها، مستخدمين في ذلك معدات بسيطة وبدائية كالقَدُوم والمنْقَب والمِنشار اليدوي والشاكوش والفاس والمبرد والأزميل.

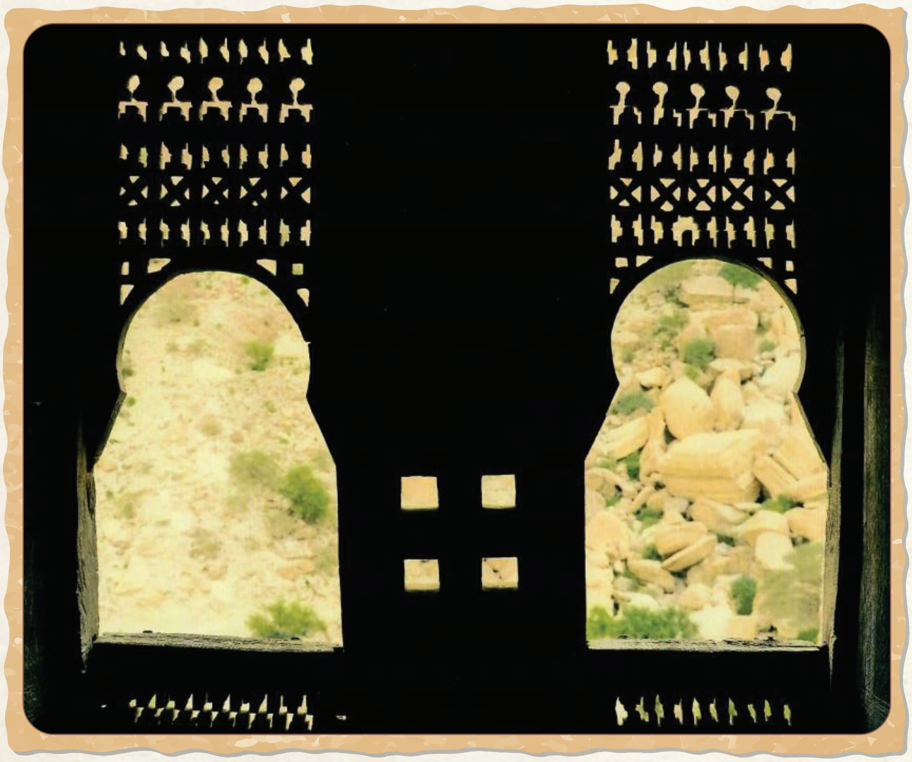

صياغة الحلي:

إن الفضة هي المادة التقليدية لصناعة الحلي في حضرموت، وكانوا يستخدمونها كمادة خام للمشغولات الفضية وكقطعة للزينة، وتعد صناعة الحلي الفضية في حضرموت حرفة تقليدية متأصلة في التراث، حيث يقوم الحرفيون بتشكيل الفضة وصياغتها ونقشها بمهارة عالية، ويعتبرونها جزءًا من هويتهم الثقافية. ومن الحلي المشهورة الحزام الذي يسمى الحنيشة وأيضًا المورِيَّة أو المعيشوقة والحجل (الخلخال) والخواتم والأقراط وقلادة الصدر (لبّه) وغيرها. اشتهر بها في دوعن آل باحشوان، وآل بن سلمان، وآل باقطيان.

ويتمّ شراء الحُلي الفضيّة من قِبَل أهل العريس لعروسهم كهدية زواج وتعدّ من الممتلكات الشخصية للنساء، وبالنسبة للرجال يتمّ صناعة الخواتم من الفضة وأساور المعصم والعضد (عضاد) وجراب الخنجر (الجنبيّة) ويسمّى (المحزم).

وادي دوعن يجمع بين الجبال والزراعة الموسمية والنخيل، ويحافظ أهله على الأزياء التقليدية للرجال والنساء أيضا، مع تنوع تاريخي في الملابس والزينة بين الفئات، وتأثر حديث بالموضة، وبقاء الموروث الشعبي حاضرًا عبر الأجيال.

الحياة الاجتماعية
في وادي دوعـــن

يقع وادي (دوعن) ضمن هضبة حضرموت الجنوبية، وتنتشر أشجار النخيل على جوانب هذا الوادي، كما تنمو أشجار السدر والسمر والعريط في بطن الوادي وجوانبه، وعلى الرغم من أن معظم سكان وادي (دوعن) يعملون في الزراعة الموسمية كزراعة الذرة والدخن وعلف البرسيم وبعض الفاكهة، إلا أن أعدادًا من أشجار النخيل وأشجار السدر قد انقرضت بفعل الجفاف والإهمال من قبل المزارعين، ومن الجميل أن الدوعنيين (الدواعنة) لا زالوا جيلًا بعد جيل محافظين على تراثهم الخاص وزيّهم التقليدي، وهو للرجال لبس العمامة والفوطة (الصارون) المصنوعة من القطن الفاخر وغيره. كما تحافظ المرأة على لباسها المحتشم (العباءة أو الشُّقّة) خارج منزلها، وللأعياد والأعراس لبس آخر يُزيّن بسلاسل الفضّة، كما أن للمرأة لباسًا تقليديًّا أثناء الرعي وممارسة العمل.

اللباس التقليدي لأهل دوعن

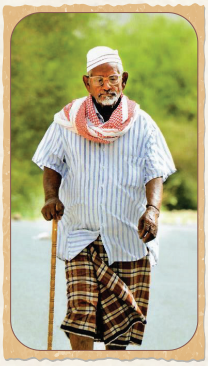

وجوه من دوعن بلباسهم التقليدي (الشميز والفوطة والعمامة)

الشقة: عباءة تلبسها المرأة الدوعنية خارج بيتها

اللباس التقليدي للمرأة أثناء رعي الاغنام وممارسة العمل

يذكر (روديونوف) أن الفوارق الاجتماعية في اللّباس في وقتنا الحاضرأصبحت ضعيفة وقليلة، بينما في الماضي كانت تتجلّى بوضوح في الملابس؛ فإن السادة كانوا يعرفون بكسائهم الأبيض الطويل - قمصان، والصديرية، والعمامة الخضراء أو شال الرأس الأبيض. وكانت نساء هذه الطبقة يلبسن ثياب حريرية حمراء اللون، أما خارج البيت فكن يرتدين الثوب الأسود والقناع ومنديل الرأس. وكان المشايخ يتميزون بخناجرهم المستقيمة، وكان بمقدورهم أن يلبسوا مثل السادة أو مثل القبائل. وكان الأخيرون يرتدون الشيذر القصير، ملحفه، والشال على الشعر أو سير جلدي والخنجر المعقوف الذي لابد منه على الخصر -جنبية- وحاليًّا يحملها في حضرموت فقط كبار السن من القبائل.

أما ثياب القرويين - فهي الصارون وقميص قصير وحزام وشال على الرأس وآخر على الكتف، ولا يجوز لهم حمل الخنجر ولا الجنبية ويمكنهم حمل السكين فقط. وكانت نساؤهم يلبسن الثياب الحمراء تحت قميص الخروج الأبيض وغطاء خاص للرأس - غشاوة. وبالنسبة للفلاحين والمستأجرين بفتح الجيم فكانوا يلبسون أردية متواضعة (طان - طانة)، تربط بأحزمة جلدية رفيعة مع حلق رصاصية دائرية أما الفلاحات فكن يلبسن الثياب السوداء ومناديل الرأس بدون قناع. أما في الوقت الحاضر فأصبح ارتداء القناع في جميع الطبقات وينظر إليها الكثيرون كهيبة.

يضيف (روديونوف) أنه وإذا كانت جميع الملابس الرجالية المعاصرة مستوردة عمليًّا، فإن الزي النسائي (وخاصة الفستان) يتم تجهيزه حسب الطلب، ولا يباع في الأسواق أو الزيارات ويحافظ في أشياء كثيرة على الخصائص التقليدية القديمة. ومع كل ذلك فإنه عُرضَة للتغيّير. ففي مجرى وادي دوعن خرجت من الموضة خلال الفترة الأخيرة فساتين الأفراح المخطّطة، وحظيت الفساتين الخضراء بشهرة خاصة. أما عن أدوات الزينة، فيذكر الرحّالة (ميولين) أنه منذ سن باكرة بين الثامنة والعاشرة، تُثقب الحافّة الخارجية للأذن بثقوب صغيرة، ثم تعلّق فيها حلقات فضية بحجم الخمسة شلنّات أو تتدلّى منها سلاسل فضية صغيرة، وتطلى أظافر اليدين والرجلين بالحناء، فتصبح أطراف الأصابع مسودة بينما راحة اليدين محمرة. أما الوجه واليدان والذراعان والساقان والقدمان فتمسح بالهُرد الأصفر. وتكحّل العينان، وحتى الرجال يستعملون الكحل لاعتقادهم بأنه يقوّى النظر. وانتشرت مؤخرًا أدوات الزينة المستوردة مثل الكريمات والأرواج والعطور والبخور بأنواعها المختلفة.

يبرز مطبخ وادي دوعن بأكلات تراثية كالعصيد والهريس والمندي والمضبي والخبز المحلي، وعادات غذائية يومية، بالإضافة إلى اللّخم المجفف، كعنصر مميز لبيئة ساحلية وريفية، ويعكس ثقافة الوادي وكرمه وأسلوب عيشه.

مطبخ أهل وادي دوعن

يتفنن أهل الوادي في تقديم الأطعمة، ولديهم أكلات توارثوها منذ القدم ومنها:

- **العصيد:** وهي من الأكلات الشعبية المفضلة في حضرموت ولها قيمة غذائية عالية ويكثر أكلها أيام الشتاء (البرد)، وتتكون العصيد الحضرمية من التمر والبُرْ المطحون (قمح والحيدوان وسليط معصرة (زيت سمسم). وبعضهم يضيف لها (سكر مطحون). كما يفضل بعضهم أكلها مع العسل الدوعني. ويتم تناولها في الصباح في الغالب كوجبة إفطار. وتقدّم للمرأة النفساء لكونها وجبة كاملة تحتوي على قيمة غذائية عالية، ويضاف لها الحيدوان: وهو حبوب كحبوب الشمر تؤخذ من نبتة صغيرة تنمو طبيعيًّا بعد الأمطار في جبال حضرموت وهي ذات رائحة زكية. ولها عدة فوائد، والحيدوان مادة غنية بالألياف الغذائية التي تساعد على تحسين عملية الهضم وعلاج الإمساك وانتفاخ البطن وتقوية المناعة. والعصيد بلا حيدوان لا يكتمل مذاقها (عند بعضهم)، وربما ينفرد الحضارم بإضافة الحيدوان للعصيد.

- **الهريس:** ويتم إعدادها من حبات القمح بعد تقشيرها ويتمّ تنقيعها في الماء ليوم كامل، ثُم يتمّ طبخها في الماء الساخن مع اللحم، ثم يتمّ تحريكها بمضراب خشبي كبير، ثم ترش بالملح والفلفل الأسود، ويُزين طبق الهريس أخيرًا بالقرفة (عند البعض)، ويضاف زيت السمسم. وغالبًا ما تكون الهريس الطعام الرئيس في الأعياد وحفلات الزفاف.

- **المضبي:** وهي أكلة مشهورة من لحم الأغنام تطبخ على الأحجار الساخنة الموضوعة فوق لهيب النار من الحطب أو الفحم حتى ينضج. ويقدم اللحم مع العسل الطبيعي والطحينة والخبز العربي أو الأرز أحيانًا.

من المعلوم أن الحضارم بصفة عامة لهم تفصيل خاص لذبيحة الأغنام. حيث يتم تقسيم الذبيحة (رأس كامل) إلى نصفين، وكل نصف إلى (رُبعين) وكل رُبع (ثمينين)، وكل ثُمن (شخصين) وفصول اللحم (٤٨ فصلًا).

- **المندي:** تعتبر وجبة لحم المندي من أكثر الأطباق شهرة في المطبخ العربي، ويتكون بشكل أساسي من اللحم والأرز مع مزيج خاص من التوابل (البهارات)، ويطبخ داخل حفرة بباطن الأرض وهي التنّور، حيث يوضع الخشب الجاف أسفل التنور ثم يُعلّق اللحم داخل التنّور فوق الأرز وبدون أن يلمس الفحم. بعد ذلك، يُغلق التنّور بالكامل لبضع ساعات حتى تنضج الذبيحة.

- **الخمير:** يصنع الخمير من دقيق الذرة البيضاء أو الحب والملح والخميرة والماء، الذي يعجن سويًّا ثم يترك فترة للتخمير في مكان دافئ، ثم يقطّع على شكل أقراص مستديرة ومن ثمّ يوضع في التنّور أو الفرن بدرجة حرارة متوسطة حتى تستوي العجينة، وتقدم مع الشاي أو مع القهوة والتمر. ويعتبر الخمير الحضرمي رمزًا للضيافة والكرم في الثقافة الحضرمية.

المقَطَّف: وهي من الخبز (معطف بُر أو خبز ملوح أو تميس)، ويسكب عليه الماء المغلي والسمن والحبة السوداء والسكر حسب الرغبة. وهو بمثابة التحلية بعد الطعام.

خمير

عصيد

هريس

حبوب الحيدوان

المقَطّف بالسمن والحبّة السوداء

تفصيل الذبيحة

طريقة شواء المضبي

مندي لحم غنم

مغاضيف

لقيمات

كعك حضرمي

باخمري

وبالنسبة لأوقات تناول الوجبات فقد كانت قديمًا تقريبًا خمسة:

١ **وجبة البسط (الفطور):** وعادة ما يؤكل في الساعات الأولى من الصباح.

٢ **وجبة الضحوة (أو قهوة الضحى):** وتؤكل عادة في منتصف الصباح.

٣ **وجبة القيال:** وتؤكل في الوقت الذي يسبق وقت القيلولة مباشرة في منتصف النهار

٤ **وجبة الغداء:** وتؤكل عادة بعد صلاة الظهر.

٥ **وجبة العشاء:** وتؤكل عادة بعد صلاة العشاء.

وحاليًا اقتصرت هذه الوجبات على **ثلاث وجبات رئيسية وهي (الفطور والغداء والعشاء)**، أما في المناسبات والأفراح والأعياد وللضيوف فيختلف الأمر، وتكون هناك الذبائح والأصناف الأخرى المشار لها أعلاه.

اللّخَم: لا يُتصور أن تذكر أطعمة حضرموت ووادي (دوعن) دون ذكر اللّخم. وهو نوع من أسماك القرش الصغيرة المملحة والمجفّفة تحت أشعة الشمس لعدة أيام. اشتهرت به حضرموت وانتقلت شهرته إلى معظم دول الخليج. وهي أكلة موغلة في القِدَم ولا يُذكر تاريخها ولا يكاد يخلو بيت في حضرموت من اللّخم. ويمتاز اللّخم بإمكانية تخزينه لفترات طويلة دون الحاجة لأجهزة تبريد ودون أن يفسد.

يطبخ اللّخم على عدة أشكال فمنه ما يطبخ كصانّة (إيدام) ويطلق عليها صانّة لخم، أو يوضع على جمر خفيف حتى يحمر أو يفوّر في الماء، وفي مناطق (حِجْر) يشرب الماء المفوّر (المغلي) من اللّخم ويطلق عليه حامي (مرقة) لخم. ويضاف له قليل من زيت المعصرة السمسم ويفضل أكله مع خبز التنار أو الدهرة.

أشهر أنواع اللّخم المعروفة بحضرموت بالتسميات المحلية هي القريني بأنواعه المختلفة والعربي وأبو حنك وأجود أنواعه بلا منازع القريني والذي يميز بالنقطة السوداء في زعنفته وهو أنواع كثيرة مثل: الهلكة (وهو أجود أنواع القريني) ويمتاز بلونه الرمادي ولحمه السميك، ثم أبو مطرقة، والسويد والجند.

وأشهر المناطق توريدًا للّخم هي قصيعر والحديدة والمهرة وسقطرى ويأتي بعضه أيضًا من الصومال، وأشهر المناطق استهلاكًا للّخم هي مناطق حضرموت الداخل ودوعن والأرياف. ويصدّر اللّخم إلى دول الخليج والسعودية وغيرها، وأهم ما في اللّخم هي زعانفه والتي تباع بسعر أغلى من لحمه؛ لما يشتهر عند كثير من الناس بإرتباطه بالطاقة والفحولة عند الرجال. وأشهر سوق في حضرموت يورد فيه اللخم هو سوق القرين بمنطقة قصيعر.

لخم مجفف جاهز للطبخ

لخم مطبوخ جاهز للأكل

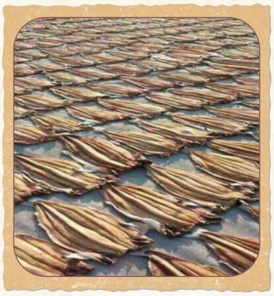
طريقة تجفيف اللخم

يشتهر وادي دوعن بالزامل والشعر، والفنون الشعبية المرتبطة بالمناسبات، وتُعبّر الأهازيج والرقصات والأناشيد عن القيم الاجتماعية، وتُجسّد روح الجماعة والهوية الثقافية، وتعكس تاريخ الوادي، وتسهم في حفظ التراث.

مكـــانة الزَّامـــل
والشعر في الوادي

يشتهر أهالي (دوعن) بأداء الزوامل (جمع زامل) ويقال إن الكلمة مشتقة من الزملة وهي الرفقة والجماعة، ويقول الأستاذ (عبدالله البردوني) - رحمه الله: "الزَّامِلُ كفَنٌّ يَسْتَنْطِقُ الحَالَ"، ويشتهرون أيضًا بالمساجلات الشعرية في كل مناسبة (حيث يجتمع الشعراء ويرتجزون بالشعر فيما بينهم). والزّامل نوع من الأناشيد التي قد تكون اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، ويعكس الزّامل سمات وظروف الناس وأحوالهم وله أوزان شعرية خاصة. والزّامل كما ورد في مجلة (الثقافة الشعبية) هو "نوع من الرجز الشعري، يلجأ إليه أبناء اليمن عندما يكونون في حالة خصام أو حرب، فيقف قائدهم - وهو في الغالب يجيد نظم الزّوامل- أو أي شخص منهم فيرتجز بضعة أبيات بلهجته العامية، فيتلقفها القوم وينغّمونها (يلحنونها) بأصواتهم، ثم ينشدونها جميعًا لإثارة الحماس وتحفيز الهمم. وكذلك إذا أرادت جماعة من الناس أو قبيلة من القبائل أن تحقق لها مطلبًا من مسؤول أو حاكم أو قبيلة أخرى فإنها توفد زمرة (جماعة) منها تمثلها، ولحظة وصولهم ينشدون الزّامل الذي قد وضعوا فيه مطلبهم وأوجزوا فيه غرضهم. ويكون الزّامل عادة باللغة العامّية وتتفاوت القطعة منه ما بين اثنين إلى ثمانية أبيات". من ذلك قول الشاعر:

يَا مَرْحَبًا يا شَمْس رَبّي رَحّـبِي ... مَرْحَبْ بِكُمْ مِنْ شَرْقَهَا لِلْمَغْرِبِ
أَهْلًا بِمَنْ جَانِي ولَبَّى مَطْلَـبِي ... الْعَفُو دِينِي والتَّسَامُحْ مَذْهَبِي

ويقول الشاعر سالمين بن لسود بن الهميم:

صُوتِ الزَّوامِلْ يطْرِبِ الوَافِي ... وِيـنِسّـمِ المجْـرُوُح ممَّـا بُـه
شَرْبَه شِرِبْنَـاهَا مِنِ الصَّـافِي ... وإِنْ جَـاء بَشِـيرِالموتْ حَـيًّا بُـه

زامل حضرمي في حفل زفاف

من أشهر الشعراء في قرية صيف قديمًا صالح سالم بن صويلح، وسعيد عبدالله كشميم بادحدح، وعبيد محمد بخضر، وعمر محمد باسلاسل وعبدالله باسعيد بادغيش.

الفنون الشعبية بوادي دوعن:

ويتميز وادي (دوعن) بالكثير من الفنون الشعبية، وأغاني الزراعة والتواشيح الدينية والأراجيز، وهناك عادات خاصة ببعض المناسبات كالأعياد والأفراح مثل: شرح الهبيش، وشرح المزمار، والمدروف، وزامل القنيص، وشرح الدحيفة. وتكون كيفيتها بالتصفيق بالأكفّ وتحريك الأقدام بتناسق عجيب لا يخلو من الرشاقة والخفّة. ومن المشهورين بعزف المدروف: أحمد عبيد بانخر، وسعيد أحمد الحطي، وسالم سعيد بخضر.

عزف بالمدروف (الناي)

شرح حضرمي في حفل زفاف تحفُّه الجماهير

الهوكة (التنصورة):

كلمات تقال على رأس العريس وفي السجالات الشعرية وهي علامة فصل بين قول وآخر، وتختلف من منطقة لأخرى ويكون فيها غالبًا تفاخر تبعًا لكل قبيلة أو طبقة. من تلك الهوكات: غلّابه كم من قبيلي كسرنا نابه (أو كسرنابه)، واللّوم بهم... واللّوم بهم... واللّوم بهم. وتعني أننا كسرناهم وألحقنا بهم اللّوم والخزي والغلبة.

القناصة في دوعن موروث اجتماعي يحتفي بالصيد ويقوم عليه، ويبدأ بالزامل وينتهي بزفة لرؤوس الوعول، ويجسّد الفخر والمهارة والشجاعة والفرح، وتوارثته الأجيال كجزء من الهوية الثقافية والشعبية للوادي.